❁ ❁ ❁

تفسير سورة «ن»

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ

﴿٥﴾ بِأَييِكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول «سورة البقرة»، وأن قوله: ﴿نٓ﴾كقوله: ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. وقيل: المراد بقوله: ﴿نٓ﴾: حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط، وهو حامل للأرضين السبع، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان ـ هو الثوري ـ حدثنا سليمان ـ هو الأعمش ـ عن أبي ظَبْيان، عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر. فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة. ثم خلق «النون» ورفع بخار الماء، ففُتِقت منه السماء، وبسطت الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإنها لتفخر على الأرض. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان، عن أبي معاوية، عن الأعمش. به. وهكذا رواه شعبة، ومحمد بن فُضيل، ووكيع، عن الأعمش. به. وزاد شعبة في روايته: ثم قرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾. وقد رواه شريك، عن الأعمش، عن أبي ظبيان ـ أو مجاهد ـ عن ابن عباس، فذكر نحوه. ورواه مَعْمَر، عن الأعمش: أن ابن عباس قال. . . فذكره، ثم قرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي الضُّحى، عن ابن عباس قال: إن أول شيء خلق ربي، ﷻ، القلم، ثم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة. ثم خلق «النون» فوق الماء، ثم كبس الأرض عليه. وقد روى الطبراني ذلك مرفوعاً فقال: حدثنا أبو حبيب زيد بن المهتدي المروذي، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، حدثنا مُؤَمَّل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم والحوت، قال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب، قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة». ثم قرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾، فالنون: الحوت. والقلم: القلم.

حديث آخر في ذلك: رواه ابن عساكر عن أبي عبد الله مولى بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق «النون» وهي: الدواة. ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون ـ أو: ما هو كائن ـ من عمل أو رزق أو أثر أو أجل. فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾. ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت».

وقال ابن أبي نجيح: إن إبراهيم بن أبي بكر أخبره عن مجاهد قال: كان يقال: النون الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة. وذكر البغوي وجماعة من المفسرين: إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن، وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن، فالله أعلم. ومن العجيب أن بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا حميد، عن أنس: أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺالمدينة، فأتاه فسأله عن أشياء، قال: إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي، قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه؟ والولد ينزع إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً». قال ابن سلام: فذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادةُ كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت». ورواه البخاري من طرق عن حُميد، ورواه مسلم أيضاً. وله من حديث ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ نحو هذا. وفي صحيح مسلم من حديث أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان: أن حبراً سأل رسول الله ﷺعن مسائل، فكان منها أن قال: فما تحفتهم؟ ـ يعني أهل الجنة حين يدخلون الجنة ـ قال: «زيادة كبد الحوت». قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً».

وقيل: المراد بقوله ﴿نٓ﴾: لوح من نور. قال ابن جرير: حدثنا الحسين بن شبيب المكتب، حدثنا محمد بن زياد الجزري، عن فرات بن أبي الفرات، عن معاوية بن قُرّة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾: لوح من نور، وقلم من نور، يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة». وهذا مرسل غريب. وقال ابن جريج: أخبرت أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام. وقيل: المراد بقوله: ﴿نٓ﴾: دواة، والقلم: القلم. قال ابن جرير: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿نٓ﴾ قالا: هي الدواة. وقد روي في هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا أبو عبد الله مولى بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: «خلق الله النون، وهي الدواة». وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، حدثنا

أخي عيسى بن عبد الله، حدثنا ثابت الثمالي، عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون ـ وهي الدواة ـ وخلق القلم، فقال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول، بر أو فجور، أو رزق مقسوم حلال أو حرام. ثم ألزم كل شيء من ذلك، شأنه: دخوله في الدنيا، ومقامه فيها كم؟ وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العباد حفظه، وللكتاب خزاناً، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزنة. ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً. فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا. قال: فقال ابن عباس: ألستم قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل. وقوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾: الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣ ـ ٥]. فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون. وقال أبو الضُّحى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يعملون. وقال السدي: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: يعني الملائكة وما تكتب من عمل العباد.

وقال آخرون: بل المراد ها هنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة. وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالا: حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سُليم السلمي، عن عطاء ـ هو ابن أبي رباح ـ حدثني الوليد بن عباد بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي، به. وقال: حسن صحيح غريب. ورواه أبو داود في كتاب «السنة» من سننه، عن جعفر بن مسافر، عن يحيى بن حسان، عن ابن رباح، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة ـ واسمه حُبَيش بن شُريح الحبشي الشامي ـ عن عبادة، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله الطوسي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، حدثنا رباح بن زيد، عن عمر بن حبيب، عن القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول شيء خلقه الله القلم، فأمره فكتب كل شيء». غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ يعني: الذي كتب به الذكر. وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: يكتبون، كما تقدم. وقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ أي: لست، ولله الحمد، بمجنون، كما قد يقوله الجهلة من قومك، والمكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك إلى الجنون، ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع كقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي: غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: أي: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وقال عطية: لعلى أدب عظيم. وقال معمر، عن قتادة: سُئلت عائشةُ عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: كان خلقه القرآن، تقول: كما هو في القرآن. وقال سعيد بن أبي عَروبة، عن قتادة قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾: ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خُلُق رسول الله ﷺ. فقالت: أتقرأ القرآن؟ قلتُ: نعم. فقالت: كان خلقه القرآن. هذا حديث طويل. وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث قتادة بطوله. وسيأتي في سورة «المزمل» إن شاء الله تعالى. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن رجل من بني سواد قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: أما تقرأ القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾؟ قال: قلت: حدثيني عن ذاك. قالت: صنعت له طعاماً، وصنعت له حفصة طعاماً، فقلت لجاريتي: اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبلُ فاطرحي الطعام! قالت: فجاءت بالطعام. قالت: فألقت الجارية، فوقعت القصعة فانكسرت ـ وكان نطعاً ـ قالت: فجمعه رسول الله ﷺ وقال: «اقتضوا ـ أو:

اقتضي ـ شك أسود ـ ظرفاً مكان ظرفك». قالت: فما قال شيئاً. وقال ابن جرير: حدثنا عبيد بن آدم بن أياس، حدثنا أبي، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، عن سعد بن هشام: قال: أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها: أخبريني بخُلق النبي ﷺ. فقالت: كان خلقه القرآن. أما تقرأ؛ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾. وقد روى أبو داود والنسائي، من حديث الحسن، نحوه. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، وأخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبير بن نفير قال: حججتُ فدخلتُ على عائشة، رضي الله عنها، فسألتها عن خُلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن. هكذا رواه أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي. ورواه النسائي في التفسير، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، به. ومعنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثالُ القرآن، أمراً ونهياً، سجيةً له، وخلقاً تطبّعه، وترك طبعه الجبلّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسستُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وقال البخاري: حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله، ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأتمم صالح الأخلاق». تفرد به.

وقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أي: الجنون. وكذا قال مجاهد، وغيره. وقال قتادة وغيره: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أي: أولى بالشيطان. ومعنى المفتون ظاهر، أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو: فستُخْبَر ويُخْبَرون بأيكم المفتون. والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ أي: هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾: قال ابن عباس: لو تُرخّص لهم فيُرَخّصون. وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾: وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. قال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. وقوله: ﴿هَمَّازٍ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يعني الاغتياب. ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي الحالقة، وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد، عن طاوس، عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» الحديث. وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم، من طرق عن مجاهد، به. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، أن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتّات». رواه الجماعة ـ إلا ابن ماجه ـ من طرق، عن إبراهيم، به. وحدثنا عبد الرزاق،

حدثنا الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات» يعني: نماماً. وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول، عن الأعمش، حدثني إبراهيم ـ منذ نحو ستين سنة ـ عن همام بن الحارث قال: مر رجل على حذيفة فقيل: إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ أو قال ـ: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات». وقال أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا مهدي، عن واصل الأحدب، عن أبي وائل قال: بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث، فقال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن ابن خُثَيم، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن؛ أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، ﷻ». ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت». ورواه ابن ماجه، عن سويد بن سعيد، عن يحيى بن سليم، عن ابن خُثَيم، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي حُسين، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم ـ يبلغ به النبي ﷺ ـ: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بيْن الأحبة، الباغون للبرآء العنت».

وقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ في متناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: يتناول المحرمات. وقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾: أما العتل: الفظ الغليظ الصحيح، الجموع المَنُوعُ. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن مَعْبَد بن خالد، عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضعَّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جوّاظ مستكبر». وقال وكيع: «كل جوّاظ جعظري مستكبر». أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة، إلا أبا داود، من حديث سفيان الثوري وشعبة، كلاهما عن معبد بن خالد، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى بن علي قال: سمعت أبي يحدِّث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع». تفرد به أحمد. قال أهل اللغة: الجعظري: الفظُّ الغليظ، والجوّاظ: الجمُوع المَنُوع. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الحميد، عن شهر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غنم، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن العُتلّ الزنيم، فقال: «هو الشديد الخلق المصحح، الأكول الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، رحيب الجوف». وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجواظ الجعظري، والعتل الزنيم» وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا مِقضَماً، فكان للناس ظلوماً. قال: فذلك العُتُل الزنيم». وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين، ونص عليه غير واحد من السلف، منهم مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أن العتل هو: المُصحَّح الخلق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك. وأما الزنيم فقال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عُبيد الله، عن إسرائيل، عن أبي حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ قال: رجلٌ من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة. ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها. وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدّعيُّ في القوم. قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة، قال: ومنه قول حسان بن ثابت، يعني يذم بعض كفار قريش:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم ... كما نِيطَ خَلْفَ الرّاكب القَدَحُ الفَرْدُ

وقال آخر:

زَنيمٌ لَيْسَ يُعرَفُ من أبوهُ ... بغيُّ الأم ذُو حَسَب لَئيم

وقال ابن أبي حاتم: حاتم عمار بن خالد الواسطي، حدثنا أسباط، عن هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ قال: الدعيُّ الفاحش اللئيم. ثم قال ابن عباس:

زنيمٌ تداعاه الرجالُ زيادةً ... كما زيد في عرض الأديم الأكارعُ

وقال العوفي عن ابن عباس: الزنيم: الدعي. ويقال: الزنيم: رجل كانت به زنمة، يعرف بها. ويقال: هو الأخنس بن شريق الثقفي، حليف بني زهرة. وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسودُ بن عبد يغوث الزهري، وليس به. وقال ابن أبي نجيح،

عن مجاهد، عن ابن عباس: أنه زعم أن الزنيم المُلحق النسب. وقال ابن أبي حاتم: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني سليمان بن بلال، عن عبد الرحمن بن حرملة، عن سعيد بن المُسيِّب، أنه سمعه يقول في هذه الآية: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ قال سعيد: هو الملصق في القوم، ليس منهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عقبة بن خالد، عن عامر بن قدامة قال: سئل عكرمة عن الزنيم، قال: هو ولد الزنا. وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ قال: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء. والزنماء من الشياه: التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها. وقال الثوري، عن جابر، عن الحسن، عن سعيد بن جبير قال: الزنيم: الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. والزنيم: الملصق. رواه ابن جرير. وروى أيضاً من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في الزنيم: قال: نُعت فلم يعرف حتى قيل: زنيم. قال: وكانت له زَنَمةٌ في عنقه يُعرَف بها. وقال آخرون: كان دعياً. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، عن أبيه، عن أصحاب التفسير قالوا: هو الذي تكون له زَنَمةٌ مثل زنمة الشاة. وقال الضحاك: كانت له زنمة في أصل أذنه، ويقال: هو اللئيم الملصق في النسب. وقال أبو إسحاق: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: هو المريب الذي يعرف بالشر. وقال مجاهد: الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة. وقال أبو رزين: الزنيم علامة الكفر. وقال عكرمة: الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها. والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً وولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا». وفي الحديث الآخر: «ولد الزنا شرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه».

وقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾: يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ٣٠]. وقال تعالى ها هنا: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾. قال ابن جرير: سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمة على الخراطيم. وهكذا قال قتادة: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾: شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفي رواية عنه: سيما على أنفه. وكذا قال السدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾: يقاتل يوم بدر، فيُخطم بالسيف في القتال. وقال آخرون: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: سمة أهل النار، يعني: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو مُتجه. وقد قال ابن أبي حاتم في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني خالد عن سعيد، عن عبد الملك بن عبد الله، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه ساخط. وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً، ثم يموت والله عليه راض. ومن مات همَّازاً لمَّازاً مُلقِّباً للناس، كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم، من كلا الشفتين».

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بَعْثُهُ محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجُذّن ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حنَّثهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: أصابتها آفة سماوية، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾: قال ابن عباس: أي كالليل الأسود. وقال الثوري، والسدي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشيماً يبساً. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن أحمد بن الصباح:

أنبأنا بشير بن زاذان، عن عمر بن صبح، عن ليث بن أبي سليم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيِّىء له»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم. ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ، ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تريدون الصرام. قال مجاهد: كان حرثهم عنباً ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم. ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم! قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قوة وشدة. وقال مجاهد: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: جد. وقال عكرمة: غيظ. وقال الشعبي: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: على المساكين. وقال السدي: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: كان اسم قريتهم حرد. فأبعد السدي في قوله هذا! ﴿قَٰدِرِينَ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله، ﷻ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة، لا يُنتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها. قاله ابن عباس وغيره. ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾! قال مجاهد، والسدي، وابن جريج: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون. قال السدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً.

قال ابن جريج: هو قول القائل: إن شاء الله. وقيل: معناه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا: وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة، والله أعلم. ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ـ قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها ضروان، على ستة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة ـ وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدّخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل. فلما مات ورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أنّا منعناهم لتوفر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك عُوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، ورأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المساكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق. وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد بالليل.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله، ﷻ، وخالفوا أمره، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها. ثم قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؟ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾! أي: كيف تظنون ذلك؟ ثم قال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يقول: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾؟ أي: قل لهم: من هو

المتضمن المتكفل بهذا؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)﴾.

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾ يعني: يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام. وقد قال البخاري ها هنا: حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشفُ ربّنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق، وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور. وقد قال عبد الله بن المبارك، عن أسامة بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: هو يوم كَرْب وشدة. رواه ابن جرير ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن المغيرة، عن إبراهيم، عن ابن مسعود ـ أو: ابن عباس، الشك من ابن جرير ـ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: شدة الأمر. وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة. وقال ابن جُريج، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: شدة الأمر وجده. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: هو الأمر الشديد المُفظع من الهول يوم القيامة. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال. وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه. وكذا روى الضحاك عن ابن عباس. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبَّة، حدثنا هارون بن عمر المخزومي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح، عن مولى لعمر بن عبد العزيز، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: «عن نور عظيم، يخرون له سجداً». ورواه أبو يعلى، عن القاسم بن يحيى، عن الوليد بن مسلم، به. وفيه رجل مبهم، فالله أعلم. وقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب، ﷻ، فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون. ثم قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظر، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام: ٤٤]. ولهذا قال ها هنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه». ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١٠٢]. وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)﴾: تقدم تفسيرهما في سورة «الطور». والمعنى في ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله، ﷻ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله، ﷻ، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى، عليه السلام، حين ذهب مُغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح

البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذٍ نادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وقال ههنا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: مغموم. وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك: مكروب. وقد قدمنا في الحديث أنه لما قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، خرجت الكلمة تحفّ حول العرش، فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال الله: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا يونس. قالوا: يا رب، عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري. وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة. وقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ لينفُذونك بأبصارهم، أي: ليعينُوك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله، ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة:

حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه: قال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود العتكي، حدثنا شريك (ح)، وحدثنا العباس العَنْبَري، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك، عن العباس بن ذريح، عن الشعبي ـ قال العباس: عن أنس ـ قال: قال النبي ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حُمة أو دم لا يرقأ». لم يذكر العباس العين. وهذا لفظ سليمان. **حديث بُرَيدة بن الحُصيب، رضي الله عنه**: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر الرازي، عن حُصين، عن الشعبي، عن بُريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حُمة». هكذا رواه ابن ماجه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، عن سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حُصين بن عبد الرحمن، عن عامر الشعبي، عن بريدة موقوفاً، وفيه قصة. وقد رواه شعبة، عن حصين، عن الشعبي، عن بريدة. قاله الترمذي. وروى هذا الحديث الإمام البخاري من حديث محمد بن فضيل، وأبو داود من حديث مالك بن مِغْول، والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، ثلاثتهم عن حصين، عن عامر الشعبي، عن عمران بن حُصين موقوفاً. **حديث أبي جندب بن جنادة**: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، رحمه الله: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة بن البرند السامي، حدثنا ديلم بن غزوان، حدثنا وهب بن أبي دبي، عن أبي حرب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتولع الرجل بإذن الله، فيتصاعد حالقا، ثم يتردى منه» إسناده غريب، ولم يخرجوه. **حديث حابس التميمي**: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثنا حيَّة بن حابس التميمي: أن أباه أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل». وقد رواه الترمذي عن عمرو بن علي، عن أبي غسان يحيى بن كثير، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، به. ثم قال غريب. قال: وروى شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حيَّة بن حابس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قلت: كذلك رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى وحُسين بن محمد، عن شيبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن حيَّة، حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا بأس في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل».

حديث ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الوليد، عن سفيان، عن دويد، حدثني إسماعيل بن ثوبان، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، العين حق، تستنزل الحالق» غريب. **طريق أخرى**: قال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا وُهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا اغْتُسلتم فاغسلوا». انفرد به دون البخاري. وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن المِنْهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة»، ويقول: «هكذا كان إبراهيم يُعوِّذ إسحاق وإسماعيل، عليهما السلام». أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث المنهال، به. **حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، رضي الله عنه**: قال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سفيان،

عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف قال: مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف، وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة. فما لبث أن لُبِطَ به، فأتي به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً. قال: «من تتهمون به؟». قالوا: عامر بن ربيعة. قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يُعجبه فلْيَدعُ له بالبركة». ثُم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه. قال سفيان: قال معمر، عن الزهري، وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه. وقد رواه النسائي، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس، كلاهما عن الزهري، به. ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة: ويكفأ الإناء من خلفه. ومن حديث ابن أبي ذئب عن الزهري، عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حُنيف، عن أبيه، به. ومن حديث مالك أيضاً، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، به. **حديث أبي سعيد الخدري**: قال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس. فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك. ورواه الترمذي والنسائي من حديث سعيد بن إياس أبي مسعود الجُرَيري، به. وقال الترمذي: حسن.

حديث آخر عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي، حدثني عبد العزيز بن صُهيب، حدثني أبو نضرة، عن أبي سعيد: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ قال: «نعم». قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين يشفيك، باسم الله أرقيك. ورواه عن عفان، عن عبد الوارث، مثله. ورواه مسلم وأهل السنن ـ إلا أبا داود ـ من حديث عبد الوارث، به. قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن أبي نضرة، عن سعيد ـ أو: عن جابر بن عبدالله ـ أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين الله يشفيك. ورواه أيضاً، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوي، عن داود، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به. قال أبو زُرْعَة الرازي: روى عبد الصمد بن عبد الوارث، عن أبيه، عن عبد العزيز، عن أبي نَضرَة، وعن عبد العزيز، عن أنس، في معناه، وكلاهما صحيح. **حديث أبي هريرة**: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن همَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن العين حق». أخرجاه من حديث عبد الرزاق. وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن عُلَيّة، عن الجُريري، عن مُضارب بن حزن، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق». تفرد به. ورواه أحمد، عن إسماعيل بن عُلَيّة، عن سعيد الجُرَيْري، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا ثور ـ يعني ابن يزيد ـ عن مكحول، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، ويحضُرها الشيطانُ، وحسد ابن آدم». وقال أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن قيس: سُئل أبو هُريرة: هل سمعت رسول الله يقول: الطيرة في ثلاث: في المسكن والفرس والمرأة؟ قال: قلت: إذاً أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل! ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصدق الطيرة الفألُ، والعين حق». **حديث أسماء بنت عُمَيس**: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عُروة بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزُرقي قال: قالت أسماء: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، به. ورواه الترمذي أيضاً والنسائي، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن عمرو بن دينار، عن عُرْوَة بن عامر، عن عُبَيد بن رفاعة، عن أسماء بنت عميس، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث عائشة، رضي الله عنها: قال ابن ماجه: حدثنا علي بن أبي الخصيب، حدثنا وكيع، عن سفيان، ومِسْعَر، عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن شدَّاد، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين. ورواه البخاري عن محمد بن كثير، عن سفيان، عن معبد بن خالد، به. وأخرجه مسلم من حديث سُفيان ومِسْعَر، كلاهما عن معبد، به. ثم قال ابن ماجه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو هشام المخزومي، حدثنا وُهيب، عن أبي واقد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق». تفرد به. وقال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المعين. **حديث سهل بن حُنيف**: قال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف: أن أباه حدثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار ـ من الجحفة ـ اغتسل سهلُ بن حُنيف ـ وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد ـ فنظر إليه عامر بن ربيعة، أخو بني عدي بن كعب، وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد

مُخبَّأة. فلُبِطَ سهل، فأتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهل. والله ما يرفع رأسه ولا يُفيق. قال: «هل تتهمون فيه أحد؟». قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة. فدعا رسول الله ﷺ عامراً، فتغيظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه، هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟». ثم قال له: «اغتسل له» ـ فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ـ ثم صُب ذلك الماء عليه. يصبُه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه. ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس، ليس به بأس.

حديث عامر بن ربيعة: قال الإمام أحمد في مسند عامر: حدثنا وكيع، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عيسى، عن أميّة بن هند بن سهل بن حُنيف، عن عبد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: ـ فانطلقا يلتمسان الخمر ـ قال: فوضع عامر جُبَّة كانت عليه من صوف، فنظرت إليه فأصبته بعيني فنزل الماء يغتسل. قال: فسمعت له في الماء فرقعة، فأتيته فناديته ثلاثاً فلم يجبني. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: فجاء يمشي فخاض الماء كأني أنظر إلى بياض ساقيه، قال: فضرب صدره بيده ثم قال: «اللهم، اصرف عنه حرها وبردها ووصبها» قال: فقام. فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فليُبَرِّك، فإن العين حق». **حديث جابر**: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا طالب بن حبيب بن عمرو بن سهل الأنصاري ـ ويقال له: ابن الضجيع، ضجيع حمزة، رضي الله عنه ـ حدثني عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس». قال البزار: يعني العين. قال: ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قلت: بل قد روي من وجه آخر عن جابر؛ قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي ـ المعروف بشكَّر ـ في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة: حدثنا الرهاوي، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا علي بن أبي علي الهاشمي، حدثنا محمد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، لتُورِد الرجل القبر، والجمل القِدر، وإن أكثر هلاك أمتي في العين». ثم رواه عن شعيب بن أيوب، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تُدخل الرجل العينُ في القبر، وتدخل الجمل القدر».

حديث عبد الله بن عمرو: قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين بن سعد، عن الحسن بن ثوبان، عن هشام بن أبي رُقية، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا حسد، والعين حق». تفرد به أحمد. **حديث عن علي**: روى الحافظ ابن عساكر من طريق خَيْثمة بن سليمان الحافظ: حدثنا عبيد بن محمد الكشوري، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصري، عن أبي رجاء، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، أن جبريل أتى النبي ﷺ فوافقه مغتماً، فقال: يا محمد، ما هذا الغم الذي أراه في وجهك؟ قال: «الحسن والحسين أصابتهما عين». قال: صدق بالعين، فإن العين حق، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات؟ قال: «وما هن يا جبريل؟». قال: قل: اللهم ذا السلطان العظيم، ذا المن القديم، ذا الوجه الكريم، ولي الكلمات التامات، والدعوات المستجابات، عاف الحسن والحسين من أنفس الجن، وأعين الإنس. فقالها النبي ﷺ فقاما يلعبان بين يديه. فقال النبي ﷺ: «عوِّذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله». قال الخطيب البغدادي: تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحيطي من أهل تُسْتَر. ذكره ابن عساكر في ترجمة «طراد بن الحسين»، من تاريخه. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: لمجيئه بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

❀ ❀ ❀

(٦٨) سورة القلم مكية وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ ﴾ فيه مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ الأقوال المذكورة فى هذا الجنس قد شرحناها فى أول سورة البقرة والوجوه الزائدة التى يختص بها هذا الموضع (أولها) أن النون هو السمكة ، ومنه فى ذكر يونس (وذا النون) وهذا القول مروى عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدى ثم القائلون بهذا منهم من قال إنه قسم بالحوت الذى على ظهره الأرض وهو فى بحر تحت الأرض السفلى ، ومنهم من قال إنه قسم بالحوت الذى احتبس يونس عليه السلام فى بطنه ، ومنهم من قال : إنه قسم بالحوت الذى لطخ سهم نمروذ بدمه (والقول الثانى) وهو أيضاً مروى عن ابن عباس واختيار الضحاك والحسن وقتادة أن النون هو الدواة ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما الشوق يرجع بى إليهم ألقت النون بالدمع السجوم

فيكون هذا قسما بالدواة والقلم ، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة ، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق و[تارة] يتحرى بالكتابة (والقول الثالث) أن النون لوح تكتب الملائكة ما يأمرهم الله به فيه رواه معاوية بن قرة مرفوعاً (والقول الرابع) أن النون هو المداد الذى تكتب به الملائكة واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأنا إذا جعلناه مقسما به وجب إن كان جنساً أن نجره وننونه ، فإن القسم على هذا التقدير يكون بدواة منكرة أو بسمكة منكرة ، كأنه قيل وسمكة والقلم ، أو قيل ودواة والقلم ، وإن كان علماً أن نصرفه ونجره أولا نصرفه ونفتحه إن جعلناه غير منصرف . (والقول الخامس) أن نون ههنا آخر حروف الرحمن فإنه يجتمع من الرحمن ن اسم الرحمن فذكر الله هذا الحرف الأخير من هذا الإسم ، والمقصود القسم بتمام هذا الإسم ، وهذا أيضاً ضعيف لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية ، بل الحق أنه إما أن يكون اسما للسورة أو يكون الغرض منه التحدى أو سائر الوجوه المذكورة فى أول سورة البقرة .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ القراء مختلفون فى إظهار النون وإخفائه من قوله (ن والقلم) فمن أظهرها فلأنه

وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

ينوى بها الوقف بدلالة اجتماع الساكنين فيها ، وإذا كانت موقوفة كانت فى تقدير الانفصال مما بعدها ، وإذا انفصلت مما بعدها وجب التبيين ، لأنها إنما تخفى فى حروف الفم عند الاتصال ، ووجه الإخفاء أن همزة الوصل لم تقطع مع هذه الحروف فى نحو (الم آلله) وقولهم فى العدد واحد اثنان فمن حيث لم تقطع الهمزة معها علمنا أنها فى تقدير الوصل وإذا وصلتها أخفيت النون وقد ذكرنا هذا فى طس ويس ، قال الفراء وإظهارها أعجب إلى لأنها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل ،

وقوله تعالى ﴿ والقلم ﴾ فيه قولان (أحدهما) أن القسم به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من فى السماء ومن فى الأرض ، قال تعالى (وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم) فمن بتيسير الكتابة بالقلم كما من بالنطق فقال (خلق الإنسان ، علمه البيان) ووجه الانتفاع به أن ينزل الغائب منزلة المخاطب فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب (والثانى) أن المقسم به هو القلم المعهود الذى جاء فى الخبر أن أول ما خلق الله القلم ، قال ابن عباس أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال ، قال وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض ، وروى مجاهد عنه قال : أول ما خلق الله القلم فقال اكتب القدر فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وإنما يجرى الناس على أمر قد فرغ منه . قال القاضى هذا الخبر يجب حمله على المجاز ، لأن القلم الذى هو آلة مخصوصة فى الكتابة لا يجوز أن يكون حياً عاقلا فيؤمر وينهى . فإن الجمع بين كونه حيواناً مكلفاً وبين كونه آلة للكتابة محال ، بل المراد منه أنه تعالى أجراه بكل مايكون وهو كقوله (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فإنه ليس هناك أمر ولا تكليف ، بل هو مجرد نفاذ القدرة فى المقدور من غير منازعة ولا مدافعة ، ومن الناس من زعم أن القلم المذكور ههنا هو العقل ، وأنه شىء هو كالأصل لجميع المخلوقات ، قالوا والدليل عليه أنه روى فى الأخبار أن أول ما خلق الله القلم ، وفى خبر آخر : أول ماخلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الأرض ، قالوا فهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التى هى أصل المخلوقات شىء واحد وإلا حصل التناقض .

قوله تعالى ﴿ وما يسطرون ﴾ .

اعلم أن ما مع ما بعدها فى تقدير المصدر ، فيحتمل أن يكون المراد وسطرهم ، فيكون القسم واقعاً بنفس الكتابة ، ويحتمل أن يكون المراد المسطور والمكتوب ، وعلى التقديرين فإن حملنا القلم على كل قلم فى مخلوقات الله كان المعنى ظاهراً ، وكأنه تعالى أقسم بكل قلم ، وبكل ما يكتب

مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

بكل قلم، وقيل بل المراد ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون ، ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير فى (يسطرون) لهم ، كأنه قيل : وأصحاب القلم وسطرهم ، أى ومسطوراتهم . وأما إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله (وما يسطرون) أى وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ، ولفظ الجمع فى قوله (يسطرون) ليس المراد منه الجمع ، بل التعظيم ، أو يكون المراد تلك الأشياء التى سطرت فيه من الأعمال والأعمار ، وجميع الأمور الكائنة إلى يوم القيامة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال : ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم﴾ .

اعلم أن قوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى عن ابن عباس : أنه عليه السلام غاب عن خديجة إلى حراء ، فطلبته فلم تجده ، فإذا به وجهه متغير بلا غبار ، فقالت له مالك ؟ فذكر نزول جبريل عليه السلام ، وأنه قال له (اقرأ باسم ربك) فهو أول ما نزل من القرآن ، قال : ثم نزل بى إلى قرار الأرض فتوضأ ، وتوضأت ، ثم صلى ، وصليت معه ركعتين ، وقال هكذا الصلاة يا محمد ، فذكر عليه الصلاة والسلام ذلك لخديجة ، فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها ، وكان قد خالف دين قومه ، ودخل فى النصرانية ، فسألته فقال : ارسلى إلى محمداً ، فأرسلته فأتاه ، فقال له : هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو إلى الله أحداً ؟ فقال لا ، فقال والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصراً عزيزاً ، ثم مات قبل دعاء الرسول ، ووقعت تلك الواقعة فى ألسنة كفار قريش ، فقالوا إنه لمجنون ، وأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون ، وهو خمس آيات من أول هذه السورة ، ثم قال ابن عباس : وأول ما نزل قوله (سبح اسم ربك) وهذه الآية هى الثانية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج (أنت) هو اسم (ما) و (بمجنون) الخبر ، وقوله (بنعمة ربك) كلام وقع فى البين والمعنى انتفى عنك الجنون (بنعمة ربك) كما يقال أنت بحمد الله عاقل ، وأنت بحمد الله لست بمجنون ، وأنت بنعمة الله فهم ، وأنت بنعمة الله لست بفقير ، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه ، وقال عطاء وابن عباس يريد (بنعمة ربك) عليك بالإيمان والنبوة ، وهو جواب لقولهم (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) واعلم أنه تعالى وصفه ههنا بثلاثة أنواع من الصفات .

﴿الصفة الأولى﴾ نفى الجنون عنه ثم إنه تعالى ، قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله (بنعمة ربك) يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة فى حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية ، والبراءة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافى حصول الجنون ، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين فى قولهم له أنه مجنون .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (وإن لك لأجراً غير ممنون) وفى الممنون قولان (أحدهما) وهو قول الأكثرين ، أن المعنى غير منقوص ولا مقطوع يقال منه السير أى أضعفه ، والمنين الضعيف ومن الشىء إذا قطعه ، ومنه قول لبيد : غبش كواسب ما يمن طعامها
يصف كلاباً ضارية ، ونظيره قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) .

﴿ والقول الثانى ﴾ وهو قول مجاهد ومقاتل والكلبى ، إنه غير مقدر عليك بسبب المنة ، قالت المعتزلة فى تقرير هذا الوجه (إنه غير ممنون) عليك لأنه ثواب تستوجبه على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، والقول الأول أشبه لأن وصفه بأنه أجر يفيد أنه لا منة فيه فالحمل على هذا الوجه يكون كالتكرير ، ثم اختلفوا فى أن هذا الأجر على أى شىء حصل ؟ قال قوم معناه ، إن لك على احتمال هــذا الطعن والقول القبيح أجراً عظيما دائماً ، وقال آخرون المراد إن لك فى إظهار النبوة والمعجزات ، فى دعاء الخلق إلى الله ، وفى بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم ، فلا تمنعك نسبتها إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم ، فإن لك بسببه المنزلة العالية عند الله .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله (بنعمة ربك) وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب ، وخطأ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه ، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه لأن أخلاق المجانين سيئة ، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال (قل لا أسألكم عليه أجراً وما أنا من المتكلفين) أى لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقى لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلا بل يرجع إلى الطبع ، وقال آخرون إنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وهذا الهدى الذى أمر الله تعالى محمداً بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول ، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدى بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم ، فكأن كل واحد منهم كان مختصاً بنوع واحد ، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدى بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقاً فيهم ، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله ، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم ، وفيه دقيقة

أخرى ، وهى قوله (لعلى خلق عظيم) وكلمة على للاستعلاء ، فدل اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها ، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . واعلم أن الإتيان بالأفعال الجميلة غير وسهولة الإتيان بها غير ، فالحالة التى باعتبارها تحصل تلك السهولة هى الخلق ويدخل فى حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والغضب ، والتشديد فى المعاملات والتحبب إلى الناس بالقول والفعل ، وترك التقاطع والهجران والتساهل فى العقود كالبيع وغيره والتسمح بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهراً له ، وحصل له حق آخر . وروى عن ابن عباس أنه قال معناه : وإنك لعلى دين عظيم ، وروى أن الله تعالى قال له « لم أخلق ديناً أحب إلى ولا أرضى عندى من هذا الدين الذى اصطفيته لك ولأمتك » يعنى الإسلام ، واعلم أن هذا القول ضعيف ، وذلك لأن الإنسان له قوتان ، قوة نظرية وقوة عملية ، والدين يرجع إلى كمال القوة النظرية ، والخلق يرجع إلى كمال القوة العملية ، فلا يمكن حمل أحدهما على الآخر ، ويمكن أيضاً أن يجاب عن هذا السؤال من وجهين : (الوجه الأول) أن الخلق فى اللغة هو العادة سواء كان ذلك فى إدراك أو فى فعل (الوجه الثانى) أنا بينا أن الخلق هو الأمر الذى باعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلا ، فلما كانت الروح القدسية التى له شديدة الاستعداد للمعارف الإلهية الحقة وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة ، كانت تلك السهولة حاصلة فى قبول المعارف الحقة ، فلا يبعد تسمية تلك السهولة بالخلق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال سعيد بن هشام : قلت لعائشة « أخبرينى عن خلق رسول الله ، قالت ألست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى قالت فإنه كان خلق النبى عليه الصلاة والسلام » وسئلت مرة أخرى فقالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت (قد أفلح المؤمنون) إلى عشرة آيات ، وهذا إشارة إلى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب ، وإلى كل ما يتعلق بها ، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ، ومقتضى الفطرة ، اللهم ارزقنا شيئاً من هذه الحالة . وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت « ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه . ولا من أهل بيته إلا قال لبيك » فلهذا قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم ، وقال أنس « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى فى شىء فعلته لم فعلت ، ولا فى شىء لم أفعله هلا فعلت » وأقول إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم ، فقال (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال (وإنك لعلى خلق عظيم) فلم يبق للانسان بعد هاتين القوتين شىء ، فدل

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة ، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة .

واعلم أنه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم قال :

﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ أى فسترى يا محمد ويرون يعنى المشركين ، وفيه قولان : منهم من حمل ذلك على أحوال الدنيا ، يعنى (فستبصر ويبصرون) فى الدنيا أنه كيف يكون عاقبة أمرك ، وعاقبة أمرهم ، فإنك تصير معظما فى القلوب ، ويصيرون ذليلين ملعونين ، وتستولى عليهم بالقتل والنهب ، قال مقاتل هذا وعيدٌ بالعذاب ببدر ، ومنهم من حمله على أحوال الآخرة وهو كقوله (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) .

وأما قوله تعالى ﴿ بأيكم المفتون ﴾ ففيه وجوه : (أحدها) وهو قول الأخفش وأبى عبيدة وابن قتيبة أن الباء صلة زائدة والمعنى (أيكم المفتون) وهو الذى فتن بالجنون كقوله (تنبت بالدهن) أى تنبت الدهن وأنشد أبو عبيدة :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

والفراء طعن فى هذا الجواب ، وقال إذا أمكن فيه بيان المعنى الصحيح من دون طرح الباء كان ذلك أولى ، وأما البيت فمعناه نرجو كشف ما نحن فيه بالفرج أو نرجو النصر بالفرج (وثانيها) وهو اختيار الفراء والمبرد أن (المفتون) ههنا بمعنى الفتون وهو الجنون ، والمصادر تجىء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر ، يقال ليس له معقود رأى أى عقد رأى ، وهذا قول الحسن والضحاك ورواية عطية عن ابن عباس (وثالثها) أن الباء بمعنى فى ومعنى الآية (فستبصر ويبصرون) فى أى الفريقين المجنون ، أفى فرقة الإسلام أم فى فرقة الكفار (ورابعها) (المفتون) هو الشيطان إذ لا شك أنه مفتون فى دينه وهم لما قالوا (إنه مجنون) فقد قالوا إن به شيطاناً فقال تعالى (سيعلمون غداً) بأيهم شيطان الذى يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل .

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وفيه وجهان : (الأول) هو أن يكون المعنى إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون (الثانى) أن يكون المعنى إنهم رموك بالجنون ووصفوا أنفسهم بالعقل ، وهم كذبوا فى ذلك ، ولكنهم موصوفون بالضلال ، وأنت موصوف بالهداية والامتياز الحاصل بالهداية والضلال أولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون ، لأن ذلك

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾

ثمرته السعادة الأبدية [أ] والشقاوة ، وهذا ثمرته السعادة [أ] والشقاوة فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار فى أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذى أنعم الله به عليه من الكمال فى أمر الدين والخلق ، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال (فلا تطع المكذبين) يعنى رؤساء أهل مكة ، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم . وهذا من الله إلهاب وتهييج التشدد فى مخالفتهم .

ثم قال ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة فى الكلام ، قال المبرد داهن الرجل فى دينه وداهن فى أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر ، والمعنى تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى فتلين لهم ويلينون لك ، وروى عطاء عن ابن عباس : لو تكفر فيكفرون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما رفع (فيدهنون) ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمنى لأنه قد عدل به إلى طريق آخر . وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أى فهم يدهنون كقوله (فمن يؤمن بربه فلا يخاف) على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ ، قال سيبويه ، وزعم هارون وكان من القراء أنها فى بعض المصاحف (ودوا لو تدهن فيدهنوا) واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين ، وهذا يتناول النهى عن طاعة جميع الكفار إلا أنه أعاد النهى عن طاعة من كان من الكفار موصوفاً بصفات مذمومة وراء الكفر ، وتلك الصفات هى هذه :

﴿ الصفة الأولى ﴾ كونه حلافاً ، والحلاف من كان كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ كونه مهيناً ، قال الزجاج هو فعيل من المهانة ، ثم فيه وجهان (أحدهما) أن المهانة هى القلة والحقارة فى الرأى والتمييز (والثانى) أنه إنما كان مهيناً لأن المراد الحلاف

فى الكذب ، والكذاب حقير عند الناس . وأقول كونه حلافا يدل على أنه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله ، إذ لو عرف ذلك لما أقدم فى كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته . ومن لم يكن عالماً بعظمة الله وكان متعلق القلب بطالب الدنيا كان مهيناً ، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية ، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ كونه هماز أوهو العياب الطعان ، قال المبرد هو الذى يهمز الناس أى يذكرهم بالمكروه وأثر ذلك يظهر العيب ، وعن الحسن يلوى شدقيه فى أقفية الناس وقد استقصينا [القول] فيه فى قوله (ويل لكل همزة) .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ كونه مشاء بنميم أى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال نم ينم وينم نما ونميا ونميمة .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ كونه مناعاً للخير وفيه قولان (أحدهما) أن المراد أنه بخيل والخير المال (والثانى) كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام ، وهذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وماقاربهم لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبداً . فمنعهم الإسلام فهو الخير الذى منعهم ، وعن ابن عباس أنه أبو جهل عن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث ، وعن السدى : الأخنس بن شريق .

﴿ الصفة السادسة ﴾ كونه معتدياً ، قال مقاتل معناه أنه ظلوم يتعدى الحق ويتجاوزه فيأتى بالظلم ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعنى أنه نهاية فى جميع القبائح والفضائح .

﴿ الصفة السابعة ﴾ كونه أثيما ، وهو مبالغة فى الإثم .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ العتل وأقوال المفسرين فيه كثيرة ، وهى محصورة فى أمرين (أحدهما) أنه ذم فى الخلق (والثانى) أنه ذم فى الخلق ، وهو مأخوذ من قولك : عتله إذا قاده بعنف وغلظة ، ومنه قوله تعالى (فاعتلوه) أما الذين حملوه على ذم الخلق . فقال ابن عباس فى رواية عطاء : يريد قوى ضخم . وقال مقاتل : واسع البطن ، وثيق الخلق . وقال الحسن : الفاحش الخلق ، اللئيم النفس . وقال عبيدة بن عمير : هو الأكول الشروب ، القوى الشديد . وقال الزجاج : هو الغليظ الجافى . أما الذين حملوه على ذم الأخلاق ، فقالوا أنه الشديد الخصومة ، الفظ العنيف .

﴿ الصفة التاسعة ﴾ قوله (الزنيم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الزنيم أقوال (الأول) قال الفراء : الزنيم هو الدعى الملصق بالقوم وليس منهم ، قال حسان :

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم   كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

والزنمة من كل شىء الزيادة ، وزنمت الشاة أيضاً إذا شقت أذنها فاسترخت ويبست وبقيت

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

كالشيء المعلق ، فالحاصل أن الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم فى النسب وليس منهم ، وكان الوليد دعياً فى قريش وليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة [ليلة] من مولده . وقيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية (والقول الثانى) قال الشعبى هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها (والقول الثالث) روى عن عكرمة عن ابن عباس قال معنى كونه زنيما أنه كانت له زنمة فى عنقه يعرف بها ، وقال مقاتل كان فى أصل أذنه مثل زنمة الشاة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله بعد ذلك معناه أنه بعد ما عد له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم وهذا يدل على أن هذين الوصفين وهو كونه عتلا زنيما أشد معايبه لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد ، ولهذا قال عليه الصلاة السلام « لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده » وقيل ههنا بعد ذلك نظير ثم فى قوله (ثم كان من الذين آمنوا) وقرأ الحسن عتل رفعاً على الذم .

ثم إنه تعالى بعد تعديد هذه الصفات قال ﴿ أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله (أن كان) يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله وأن يكون متعلقاً بما بعده (أما الأول) فتقديره : ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين ، أى لا تطعه مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرته ، وأما (الثانى) فتقديره لأجل أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، والمعنى لأجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاة هذه النعم التى خولها الله له الكفر بآياته قال أبو على الفارسى العامل فى قوله (أن كان) إما أن يكون هو قوله (تتلى) أو قوله قال أو شيئا ثالثاً ، والأول باطل لأن تتلى قد أضيفت إذا إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله ألا ترى أنك لا تقول القتال زيداً حين يأتى تريد حين يأتى زيداً . ولا يجوز أن يعمل فيه أيضاً قال لأن قال جواب إذا ، وحكم الجواب أن يكون بعدما هو جواب له ولا يتقدم عليه ، ولما بطل هذان القسمان علمنا أن العامل فيه شيء ثالث دل ما فى الكلام عليه وذلك هو يجحد أو يكفر أو يمسك عن قبول الحق أو نحو ذلك ، وإنما جاز أن يعمل المعنى فيه ، وإن كان متقدماً عليه لشبهه بالظرف ، والظرف قد تعمل فيه المعانى وإن تقدم عليها ، ويدلك على مشابهته للظرف تقدير اللام معه ، فإن تقدير الآية : لأن كان ذا مال ، وإذا صار كالظرف لم يمتنع المعنى من أن يعمل فيه ، كما لم يمتنع من أن يعمل فى نحو قوله (ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ، إنكم لفى خلق جديد) لما كان ظرفاً ، والعامل فيه القسم الدال عليه قوله (إنكم لفى خلق جديد) فكذلك قوله (أن كان ذا مال وبنين) تقديره : إنه جحد آياتنا ، لأن كان ذا مال وبنين أو كفر بآياتنا ، لأن كان ذا مال وبنين .

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (أأن كان) على الاستفهام ، والتقدير : ألأن كان ذا مال كذب ، أو التقدير : أتطيعه لأن كان ذا مال . وروى الزهري عن نافع : إن كان بالكسر ، والشرط للمخاطب ، أي لا تطع كل حلاف شارطاً يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه . فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونظير صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله (لعله يتذكر) .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه قبائح أفعاله وأقواله ، قال متوعداً له :

﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ وفيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوسم أثر الكية وما يشبهها ، يقال وسمته ، فهو موسوم بسمة يعرف بها إما كية ، وإما قطع في أذن ، علامة له .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المبرد : الخرطوم ههنا الأنف ، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به ، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة ، لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافاً ، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين ، وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ منهم من قال : هذا الوسم يحصل في الآخرة ، ومنهم من قال : يحصل في الدنيا ، أما على (القول الأول) ففيه وجوه (أولها) وهو قول مقاتل ، وأبي العالية ، واختيار الفراء أن المراد أنه يسود وجهه قبل دخول النار ، والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإن المراد هو الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض (وثانيها) أن الله تعالى سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل القيامة ، إنه كان غالياً في عداوة الرسول ، وفي إنكار الدين الحق (وثالثها) أن في الآية احتمالا آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية ، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية ، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله (سنسمه على الخرطوم) ، وأما على (القول الثاني) وهو أن هذا الوسم إنما يحصل في الدنيا ففيه وجوه : (أحدها) قال ابن عباس سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش . وروى أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

(وثانيها) أن معنى هذا الوسم أنه يصير مشهوراً بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم، والمعنى سنلحق به شيئاً لا يفارقه ونبين أمره بياناً واضحاً حتى لا يخفى كما لا تخفى السمة على الخراطيم. تقول العرب للرجل الذي تسبه في مسبة قبيحة باقية فاحشة: قد وسمه ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا تنمحي ولا تزول البتة، قال جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

يريد أنه وسم الفرزدق [والبعيث] وجدع أنف الأخطل بالهجاء أي ألقى عليه عاراً لا يزول، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالوسم على الخرطوم، ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال في زنيم إنه يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها (وثالثها) يروى عن النضر بن شميل أن الخرطوم هو الخمر وأنشد:

تظل يومك في لهو وفي طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم

فعلى هذا معنى الآية: سنحده على شرب الخمر وهو تعسف، وقيل للخمر الخرطوم كما يقال لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

قوله تعالى: ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ﴾.

اعلم أنه تعالى لما قال لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، وكان هذا استفهاماً على سبيل الإنكار. بين في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات، فقال (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم، روى أن واحداً من ثقيف وكان مسلما، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه، ثم قالوا عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطى المساكين، مثل ما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم، وقيل كانوا من بني إسرائيل، وقوله (إذ أقسموا) إذ حلفوا (ليصرمنها) ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين، أي في وقت الصباح، قال مقاتل معناه اغدوا سراً إلى جنتكم، فاصرموها، ولا تخبروا المساكين، وكان أبوهم يخبر المساكين، فيجتمعون عند صرام جنتهم، يقال قد صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه، وقوله (ولا يستثنون) يعني ولم يقولوا إن شاء

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾

الله ، هـذا قول جماعة المفسرين ، يقال حلف فلان يميناً ليس فيها ثنيا ولا ثنوى ، ولا ثنية ولا مثنوية ولا استثناء ، وكله واحد ، وأصل هذا كله من الثنى وهو الكف والرد ، وذلك أن الحالف إذا قال والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره ، فقـد رد انعقاد ذلك اليمين ، واختلفوا فى قوله (ولا يستثنون) فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة ، وقال آخرون ، بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه أبوهم إلى المساكين .

ثم قال تعالى ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ﴾ طائف من ربك أى عذاب من ربك ، والطائف لا يكون إلا ليلا أى طرقها طارق من عذاب الله ، قال الكلبى أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون ، فأصبحت الجنة كالصريم ،

واعلم أن الصريم فعيل ، فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، وأن يكون بمعنى الفاعل وههنا احتمالات (أحدها) أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة فى هلاك الثمر وإن حصل الاختلاف فى أمور أخر ، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التى قطعت ثمارها ، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه ، لكن المشابهة فى هلاك الثمر حاصلة (وثانيها) قال الحسن أى صرم عنها الخير فليس فيها شىء ، وعلى هذين الوجهين الصريم بمعنى المصروم (وثالثها) الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه الصرائم ، وعلى هـذا شبهت الجنة وهى محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال ، وهى لا تنبت شيئاً ينتفع به (ورابعها) الصبح يسمى صريماً لأنه انصرم من الليل ، والمعنى أن تلك الجنة يبست وذهبت خضرتها ولم يبق فيها شىء ، من قولهم بيض الإناء إذا فرغه (وخامسها) أنها لما احترقت صارت سوداء كالليـل المظلم ، والليل يسمى صريماً وكذا النهار يسمى أيضاً صريماً ، لأن كل واحد منهما ينصرم بالآخر ، وعلى هذا الصريم بمعنى الصارم ، وقال قوم سمى الليل صريماً ، لأنه يقطع بظلمته عن التصرف . وعلى هـــذا هو فعيل بمعنى فاعل ، وقال آخرون سميت الليلة بالصريم ، لأنها تصرم نور البصر وتقطعه .

ثم قال تعالى ﴿ فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾

قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض (اغدوا على حرثكم) ويعنى بالحرث الثمار والزروع والأعناب ، ولذلك قال صارمين لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار . فإن قيل لم لم

فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾

يقل اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى على ؟ قلنا لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه كما تقول غدا عليهم العدو ، ويجوز أن تضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليهم بالجفنة ويراح ، أي فأقبلوا على حرثكم باكرين .

قوله تعالى ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أي يتساررون فيما بينهم ، وخفى وخفت وخفد ثلاثتها فى معنى كتم ومنه الخفدود للخفاش ، قال ابن عباس : غدوا إليها بسدفة يسر بعضهم إلى بعض الكلام لئلا يعلم أحد من الفقراء والمساكين .

ثم قال تعالى ﴿ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ (أن) مفسرة ، وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول أي يتخافتون يقولون (لا يدخلها) والنهى للمسكين عن الدخول نهى لهم عن تمكينه منه ، أي لا تمكنوه من الدخول ، كقولك لا أرينك ههنا .

ثم قال ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ وفيه أقوال (الأول) الحرد المنع يقال حاردت السنة إذا قل مطرها ، ومنعت ريعها ، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها ، فقل اللبن ، والحرد الغضب ، وهما لغتان الحرد والحرد والتحريك أكثر ، وإنما سمى الغضب بالحرد لأنه كالمانع من أن يدخل المغضوب منه فى الوجود ، والمعنى وغدوا وكانوا عند أنفسهم وفى ظنهم قادرين على منع المساكين (الثانى) قيل الحرد القصد والسرعة ، يقال حردت حردك قال الشاعر :

أقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغله

وقطاً حراد أي سراع ، يعنى وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون نحن نقدر على صرامها ، ومنع منفعتها عن المساكين (والثالث) قيل حرد علم لتلك الجنة أي غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ﴾ فيه وجوه (أحدها) أنهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق ، فقالوا (إنا لضالون) ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هى قالوا (بل نحن محرومون) حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء . (وثانيها) يحتمل

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾

أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا (إنا لضالون) حيث كنا عازمين على منع الفقراء ، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها ، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين .

قوله تعالى ﴿ قال أوسطهم ﴾ يعنى أعدلهم وأفضلهم وبينا وجهه فى تفسير قوله أمة وسطاً .

﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ يعنى هلا تسبحون وفيه وجوه (الأول) قال الأكثرون معناه هلا تستثنون فتقولون إن شاء الله ، لأن الله تعالى إنما عابهم بأنهم لا يستثنون ، وإنما جاز تسمية قول إن شاء الله بالتسبيح لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء ، فلو دخل شيء فى الوجود على خلاف إرادة الله ، لكان ذلك يوجب عودة نقص إلى قدرة الله . فقولك إن شاء الله ، يزيل هذا النقص ، فكان ذلك تسبيحاً .

واعلم أن لفظ القرآن يدل على أن القوم كانوا يحلفون ويتركون الاستثناء وكان أوسطهم ينهاهم عن ترك الاستثناء ويخوفهم من عذاب الله ، فلهذا حكى عن ذلك الأوسط أنه قال بعد وقوع الواقعة (ألم أقل لكم لولا تسبحون) ، (الثانى) أن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم ، قال الأوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب ، فلما رأوا العذاب ذكرهم ذلك الكلام الأول وقال (لولا تسبحون) فلا جرم اشتغل القوم فى الحال بالتوبة .

﴿ وقالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به لكن بعد خراب البصرة (الثالث) قال الحسن هذا التسبيح هو الصلاة كأنهم كانوا يتكاسلون فى الصلاة وإلا لكانت ناهية لهم عن الفحشاء والمنكر ولكانت داعية لهم إلى أن يواظبوا على ذكر الله وعلى قول إن شاء الله ، ثم إنه تعالى لما حكى عن ذلك الأوسط أنه أمرهم بالتوبة وبالتسبيح حكى عنهم أشياء (أولها) أنهم اشتغلوا بالتسبيح وقالوا فى الحال (سبحان ربنا) عن أن يجرى فى ملكه شيء إلا بإرادته ومشيئته ، ولما وصفوا الله تعالى بالتنزيه والتقديس اعترفوا بسوء أفعالهم (وقالوا إنا كنا ظالمين) .

(وثانيها) ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أى يلوم بعضهم بعضاً يقول هذا لهذا أنت أشرت علينا بهذا الرأى ، ويقول ذاك لهذا أنت خوفتنا بالفقر ، ويقول الثالث لغيره أنت الذى رغبتنى فى جمع المال فهذا هو التلاوم .

قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤)

ثم نادوا على أنفسهم بالويل ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ والمراد أنهم استعظموا جرمهم ثم قالوا عند ذلك ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴾ قرىء يبدلنا بالتخفيف والتشديد ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه ، واختلف العلماء ههنا ، فمنهم من قال إن ذلك كان توبة منهم ، وتوقف بعضهم فى ذلك ، قالوا لأن هذا الكلام يحتمل أنهم إنما قالوه رغبة منهم فى الدنيا .

ثم قال تعالى ﴿ كذلك العذاب ﴾ يعنى كما ذكرنا من إحراقها بالنار . وههنا تم الكلام فى قصة أصحاب الجنة .

واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران (أحدهما) أنه تعالى قال (أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) والمعنى : لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله كلا : بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء ، فإذا صرفه إلى الكفر دمر الله عليه بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية دمر الله على جنتهم فكيف يكون الحال فى حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية (والثانى) أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها فقلب الله عليهم القضية فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمداً وأصحابه ، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور ، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا كأهل هذه الجنة .

ثم إنه لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ وهو ظاهر لا حاجة به إلى التفسير .

ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال السعداء ، فقال ﴿ إن المتقين عند ربهم جنات النعيم ﴾ .

(عند ربهم) أى فى الآخرة (جنات النعيم) أى جنات ليس لهم فيه إلا التنعم الخالص . لا يشوبه ما ينغصه ، كما يشوب جنات الدنيا ، قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين : إن الله تعالى فضلنا عليكم فى الدنيا ، فلا بد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل ، فلا أقل من المساواة .

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾

ثم إن الله تعالى أجاب عن هذا الكلام بقوله ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ﴾ ومعنى الكلام أن التسوية بين المطيع والعاصي غير جائزة ، وفى الآية مسائل .

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال القاضى : فيه دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافى ، فالفاسق لما كان مجرماً وجب أن لا يكون مسلماً (والجواب) أنه تعالى أنكر جعل المسلم مثلا للمجرم ، ولا شك أنه ليس المراد إنكار المماثلة فى جميع الأمور ، فإنهما يتماثلان فى الجوهرية والجسمية والحدوث والحيوانية ، وغيرها من الأمور الكثيره ، بل المراد إنكار استوائهما فى الإسلام والجرم ، أو فى آثار هذين الأمرين ، أو المراد إنكار أن يكون أثر إسلام المسلم مساوياً لأثر جرم المجرم عند الله ، وهذا مسلم لا نزاع فيه ، فمن أين يدل على أن الشخص الواحد يمتنع أن يجتمع فيه كونه مسلماً ومجرماً ؟

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال الجبائى : دلت الآية على أن المجرم لا يكون البتة فى الجنة ، لأنه تعالى أنكر حصول التسوية بينهما ، ولو حصلا فى الجنة لحصلت التسوية بينهما فى الثواب ، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم إذا كان المجرم أطول عمراً من المسلم ، وكانت طاعاته غير محبطة (الجواب) هذا ضعيف لأنا بينا أن الآية لا تمنع من حصول التسوية فى شىء أصلا بل تمنع من حصول التسوية فى درجة الثواب ، ولعلهما يستويان فيه بل يكون ثواب المسلم الذى لم يعص أكثر من ثواب من عصى ، على أنا نقول لم لا يجوز أن يكون المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة وذلك لأن حمل الجمع المحلى بالألف واللام على المعهود السابق مشهور فى اللغة والعرف .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ أن الله تعالى استنكر التسوية بين المسلمين والمجرمين فى الثواب ، فدل هـــذا على أنه يقبح عقلا ما يحكي عن أهل السنة أنه يجوز أن يدخل الكفار فى الجنة والمطيعين فى النار (والجواب) أنه تعالى استنكر ذلك بحكم الفضل والإحسان ، لا أن ذلك بسبب أن أحداً يستحق عليه شيئاً .

واعلم أنه تعالى لما قال على سبيل الاستبعاد (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) قرر هذا الاستبعاد بأن قال على طريقة الالتفات (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم المعوج .

ثم قال ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ وهو كقوله تعالى (أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم) والأصل تدرسون أن لكم ما تتخيرون بفتح أن لأنه مدرس ، فلما

أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ

جاءت اللام كسرت ، وتخير الشيء واختاره ، أي أخذ خيره ونحوه تنخله وانتخله إذا أخذ منخوله .

قوله تعالى : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال لفلان علي يمين بكذا إذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به يعني أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد . فان قيل إلى في قوله (إلى يوم القيامة) بم يتعلق ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنها متعلقة بقوله (بالغة) أي هذه الأيمان في قوتها وكمالها بحيث تبلغ إلى يوم القيامة (والثاني) أن يكون التقدير . أيمان ثابتة إلى يوم القيامة . ويكون معنى بالغة مؤكدة كما تقول جيدة بالغة ، وكل شيء متناه في الصحة والجودة فهو بالغ ، وأما قوله (إن لكم لما تحكمون) فهو جواب القسم لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن بالغة بالنصب وهو نصب على الحال من الضمير في الظرف .

ثم قال للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ والمعنى أيهم بذلك الحكم زعيم ، أي قائم به وبالاستدلال على صحته ، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم .

ثم قال ﴿ أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ وفي تفسيره وجهان (الأول) المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء الله فيعتقدون أن أولئك الشركاء يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب ، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوها شركاء لله وهذا كقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) ، (الوجه الثاني) في المعنى أم لهم ناس يشاركونهم في هذا المذهب وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين ، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم ، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب ، ولا دليل نقلي وهو كتاب يدرسونه ، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول ، وذلك يدل على أنه باطل من كل الوجوه .

واعلم أنه تعالى لما أبطل قولهم ، وأفسد مقالتهم شرح بعد ذلك عظمة يوم القيامة .

فقال ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يوم منصوب بماذا ؟ فيه ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه منصوب ، بقوله : (فليأتوا) في قوله : (فليأتوا بشركائهم) وذلك أن ذلك اليوم يوم شديد ، فكأنه تعالى قال :

(إن كانوا صادقين) فى أنها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة ، لتنفعهم وتشفع لهم (وثانيها) أنه منصوب بإضمار اذكر (وثالثها) أن يكون التقدير يوم يكشف عن ساق ، كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ ، وأن ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا اليوم الذى يكشف فيه عن ساق ، أهو يوم القيامة أو فى الدنيا ؟ فيه قولان : (الأول) وهو الذى عليه الجمهور ، أنه يوم القيامة ، ثم فى تفسير الساق وجوه : (الأول) أنه الشدة ، وروى أنه سئل ابن عباس عن هذه الآية ، فقال : إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر ، فإنه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر .

سن لنا قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال : وهو كرب وشدة ، وروى مجاهد عنه قال : هو أشد ساعة فى القيامة ، وأنشد أهل اللغة أبياتاً كثيرة [منها] :

فإن شمرت لك عن ساقها فدنها ربيع ولا تسأم

ومنها : كشفت لكم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

وقال جرير : ألا رب سام الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال آخر : فى سنة قد شمرت عن ساقها حمراء تبرى اللحم عن عراقها

وقال آخر : قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

ثم قال ابن قتيبة أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه ، يشمر عن ساقه ، فلا جرم يقال فى موضع الشدة كشف عن ساقه ، واعلم أن هذا اعتراف من أهل اللغة بأن استعمال الساق فى الشدة مجاز ، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الكلام إلى المجاز إلا بعد تعذر حمله على الحقيقة ، فإذا أقمنا الدلائل القاطعة على أنه تعالى ، يستحيل أن يكون جسما ، فحينئذ يجب صرف اللفظ إلى المجاز ، واعلم أن صاحب الكشاف أورد هذا التأويل فى معرض آخر ، فقال الكشف عن الساق مثل فى شدة الأمر ، فمعنى قوله (يوم يكشف عن ساق) يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ، ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل . وإنما هو مثل فى البخل ، ثم أخذ يعظم علم البيان ويقول لولاه لما وقفنا على هذه الأسرار (وأقول) إما أن يدعى أنه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل ، أو يقول إنه لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة ، والأول باطل بإجماع المسلمين ، ولأنا إن جوزنا ذلك انفتحت أبواب تأويلات الفلاسفة فى أمر المعاد فإنهم يقولون فى قوله (جنات تجرى من تحتها الأنهار) ليس هناك لا أنهار ولا أشجار ، وإنما هو مثل للذة والسعادة ، ويقولون فى قوله : (اركعوا واسجدوا) ليس هناك لا سجود ولا ركوع . وإنما هو مثل للتعظيم ، ومعلوم أن ذلك يفضى إلى رفع الشرائع وفساد الدين ، وأما إن قال . بأنه لا يصار إلى هذا التأويل إلا بعد قيام الدلالة ، على أنه لا يجوز حمله على

ظاهره ، فهذا هو الذى لم يزل كل أحد من المتكلمين [إلا] قال به وعول عليه ، فأين هذه الدقائق ، التى استبد هو بمعرفتها والاطلاع عليها بواسطة علم البيان ، فرحم الله أمرأ عرف قدره ، وما تجاوز طوره (القول الثانى) وهو قول أبى سعيد الضرير : يوم يكشف عن ساق ، أى عن أصل الأمر ، وساق الشيء أصله الذى به قوامه كساق الشجر ، وساق الإنسان ، أى يظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها (القول الثالث) يوم يكشف عن ساق جهنم ، أو عن ساق العرش ، أو عن ساق ملك مهيب عظيم ، واللفظ لا يدل إلا على ساق ، فأما أن ذلك الساق ساق أى شيء هو فليس فى اللفظ مايدل عليه (والقول الرابع)وهو اختيار المشبهة ، أنه ساق الله ، تعالى الله عنه روى عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام « أنه تعالى يتمثل للخلق يوم القيامة حين يمر المسلمون ، فيقول من تعبدون ؟ فيقولون نعبد الله فيشهدهم مرتين أو ثلاثاً ثم يقول ، هل تعرفون ربكم ، فيقولون سبحانه إذا عرفنا نفسه عرفناه ، فعند ذلك يكشف عن ساق ، فلا يبقى مؤمن إلا خر ساجداً ، ويبقى المنافقون ظهورهم كالطبق الواحد كأنما فيها السفافيد » واعلم أن هذا القول باطل لوجوه (أحدها) أن الدلائل دلت على أن كل جسم محدث ، لأن كل جسم متناه ، وكل متناه محدث ولأن كل جسم فإنه لاينفك عن الحركة والسكون ، وكل ماكان كذلك فهو محدث ، ولأن كل جسم ممكن ، وكل ممكن محدث (وثانيها) أنه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق أن يعرف ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهى ساق الرحمن ، أما لو حملناه على الشدة ، ففائدة التنكير الدلالة على التعظيم ، كأنه قيل يوم يكشف عن شدة ، وأى شدة ، أى شدة لايمكن وصفها (وثالثها) أن التعريف لايحصل بالكشف عن الساق ، وإنما يحصل بكشف الوجه (القول الثانى) أن قوله (يوم يكشف عن ساق) ليس المراد منه يوم القيامة ، بل هو فى الدنيا ، وهذا قول أبى مسلم قال أنه لايمكن حمله على يوم القيامة لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم (ويدعون إلى السجود) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه ، إما آخر أيام الرجل فى دنياه كقوله تعالى (يوم يرون الملائكة لابشرى) ثم أنه يرى الناس يدعون إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة لأنه الوقت الذى لاينفع نفساً إيمانها ، وإما حال الهرم والمرض والعجز وقد كانوا قبل ذلك اليوم يدعون إلى السجود وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ماعاينوا عند الموت أو من العجز والهرم ، ونظير هذه الآية قوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم) واعلم أنه لانزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم ، فأما قوله إنه لايمكن حمله على القيامة بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة . فجوابه أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء (يوم نكشف) بالنون (وتكشف) بالتاء المنقوطة من فوق على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال ، أى يوم يشتد الحال أو الساعة ، كما تقول

وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

كشف الحرب عن ساقها على المجاز وقرىء تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل فى الكشف ، ومنه أكشف الرجل فهو مكشف إذا انقلبت شفته العليا .

قوله تعالى : ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

اعلم أنا بينا أنهم لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً ، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود فى الدنيا ، ثم إنه تعالى حال مايدعوهم إلى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود ، ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه ، حين دعوا إلى السجود وهم سالموا الاطراف والمفاصل . قال الجبائى لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل ذلك على أنهم فى الدنيا كانوا يستطيعون ، فبطل بهذا قول من قال الكافر لا قدرة له على الإيمان ، وإن القدرة على الإيمان لا تحصل إلا حال وجود الإيمان (والجواب) عنه أن علم الله بأنه لا يؤمن مناف لوجود الإيمان والجمع بين المتنافيين محال ، فالاستطاعة فى الدنيا أيضاً غير حاصلة على قول الجبائى .

أما قوله ﴿خاشعة أبصارهم﴾ فهو حال من قوله (لا يستطيعون ... ترهقهم ذلة) يعنى يلحقهم ذل بسبب أنهم ما كانوا مواظبين على خدمة مولاهم مثل العبد الذى أعرض عنه مولاه ، فإنه يكون ذليلا فيما بين الناس ، وقوله (وقد كانو يدعون إلى السجود وهم سالمون) يعنى حين كانوا يدعون إلى الصلوات بالأذان والإقامة وكانوا سالمين قادرين على الصلاة ، وفى هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يجب المؤذن إلى إقامة الصلاة فى الجماعة .

قوله تعالى : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد فى التخويف وخوفهم بما عنده ، وفى قدرته من القهر ، فقال ذرنى وإياه ، يريد كله إلى ، فإنى أكفيكه ، كأنه يقول : يامحمد حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلى ، وتخلى بينى بينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك ، ثم قال (سنستدرجهم) يقال استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه . وقوله (من حيث لا يعلمون) قال أبو روق (سنستدرجهم) أى كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار ، فالاستدراج إنما حصل فى الاغتناء الذى لا يشعرون أنه استدراج ، وهو الإنعام

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾

عليهم لأنهم يحسبونه تفضيلا لهم على المؤمنين ، وهو فى الحقيقة سبب لهلاكهم .

ثم قال ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ أى أمهلهم كقوله (إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً) وأطيل لهم المدة والملاوة المـــدة من الدهر ، يقال أملى الله له ، أى أطال الله له الملاوة والملوان الليل والنهار ، والملا مقصوراً الأرض الواسعة سميت به لامتدادها . وقيل (وأملى لهم) أى بالموت فلا أعاجلهم به ، ثم إنه إنما سمى إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه فى صورة الكيد ، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه فى التسبب للهلاك ، واعلم أن الأصحاب تمسكوا بهذه الآية فى مسألة إرادة الكائنات ، فقالوا هذا الذى سماه بالاستدراج وذلك الكيد ، إما أن يكون له أثر فى ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ، أو يكون له فيه أثر ، والأول باطل ، وإلا لكان هو سائر الأشياء الأجنبية بمثابة واحدة ، فلا يكون استدراجاً البتة ولا كيداً ، وأما الثانى فهو يقتضى كونه تعالى مريداً لذلك الفعل الذى ينساق إليه ذلك الاستدراج وذلك الكيد ، لأنه إذا كان تعالى لإيزال يؤكد هذا الجانب ، ويفتر ذلك الجانب الآخر ، واعلم أن تأكيد هذا الجانب لابد وأن ينساق بالآخرة إلى فعله ودخوله فى الوجود ، فلا بد وأن يكون مريداً لدخول ذلك الفعل فى الوجود وهو المطلوب ، أجاب الكعبى عنه ، فقال المراد سنستدرجهم إلى الموت من حيث لا يعلمون ، وهذا هو الذى تقتضيه الحكمة فإنهم لو عرفوا الوقت الذى يموتون فيه لصاروا آمنين إلى ذلك الوقت ولأقدموا على المعاصى . وفى ذلك إغراء بالمعاصى ، وأجاب الجبائى عنه ، فقال (سنستدرجهم) إلى العذاب من حيث لا يعلمون فى الآخرة ، (وأملى لهم) فى الدنيا توكيداً للحجة عليهم (إن كيدى متين) فأمهله وأزيح الأعذار عنـــه (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حى عن بينة) فهذا هو المراد من الكيد المتين ، ثم قال : والذى يدل على أن المراد ما ذكرنا أنه تعالى قال قبل هذه الآية (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) ولا شك أن هـذا التهديد إنما وقع بعقاب الآخرة ، فوجب أن يكون المراد من الاستدراج والكيد المذكورين عقيبه هو عذاب الآخرة . أو العذاب الحاصل عند الموت ، واعلم أن أصحابنا قالوا الحرف الذى ذكرناه وهو أن هذا الإمهال إذا كان متأدياً إلى الطغيان كان الراضى بالإمهال العـالم بتأديه إلى الطغيان لابد وأن يكون راضياً بذلك الطغيان ، واعلم أن قولهم (سنستدرجهم ـ إلى قوله ـ إن كيدى متين) مفسر فى سورة الأعراف .

ثم قال تعـالى ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ وهـذه الآية مع ما بعدها مفسرة فى سورة الطور ، وأقول إنه أعاد الكلام إلى ما تقدم من قوله (أم لهم شركاء) والمغرم الغرامة أى لم يطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقـل عليهم حمـل الغرامات فى أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمـان

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾

ثم قال تعالى ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ وفيه وجهان (الأول) أن عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ثواب ما هم عليه من الكفر والشرك ، فلذلك أصروا عليه ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار (الثانى) أن الأشياء الغائبة كأنها حضرت فى عقولهم حتى أنهم يكتبون على الله أى يحكمون عليه بما شاءوا وأرادوا .

ثم إنه تعالى لما بالغ فى تزييف طريقة الكفار وفى زجرهم عما هم عليه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ وفيه وجهان (الأول) فاصبر لحكم ربك فى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم (والثانى) فاصبر لحكم ربك فى أن أوجب عليك التبليغ والوحى وأداء الرسالة ، وتحمل مايحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل فى (إذ) معنى قوله (كصاحب الحوت) يريد لا تكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لأنه فى ذلك الوقت كان مكظوماً فكأنه قيل لا تكن مكظوماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ صاحب الحوت يونس عليه السلام ، إذ نادى فى بطن الحوت بقوله : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) ، (وهو مكظوم) مملوء غيظاً من كظم السقاء إذا ملأه ، والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة ، فتبلى ببلائه .

ثم قال تعالى ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾ وقرىء رحمة من ربه ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل لولا أن تداركته نعمة من ربه ؟ (الجواب) إنما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير فى تداركه ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود تداركته ، وقرأ الحسن : تداركه ، أى تتداركه على حكاية الحال الماضية ، بمعنى لولا أن كان ، يقال فيه تتداركه ، كما يقال كان زيد سيقوم فمنعه فلان ، أى كان يقال فيه سيقوم ، والمعنى كان متوقعاً منه القيام .

﴿السؤال الثانى﴾ ما المراد من قوله (نعمة من ربه) ؟ (الجواب) المراد من تلك النعمة ، هو أنه تعالى أنعم عليه بالتوفيق للتوبة ، وهذا يدل على أنه لا يتم شىء من الصالحات والطاعات إلا بتوفيقه وهدايته .

فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ

﴿ السؤال الثالث ﴾ أين جواب لولا ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) تقدير الآية : لولا هذه النعمة لنبذ بالعراء مع وصف المذمومية ، فلما حصلت هذه النعمة لا جرم لم يوجد النبذ بالعراء مع هذا الوصف ، لأنه لما فقد هذا الوصف : فقد فقد ذلك المجموع (الثانى) لولا هذه النعمة لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نبذ بعراء القيامة مذموماً ، ويدل على هذا قوله (فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) وهذا كما يقال : عرصة القيامة ؛ وعراء القيامة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ هل يدل قوله (وهو مذموم) على كونه فاعلا للذنب ؟ (الجواب) من ثلاثة أوجه (الأول) أن كلمة (لولا) دلت على أن هذه المذمومية لم تحصل (الثانى) لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين (الثالث) لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله (فاجتباه ربه) والفاء للتعقيب .

﴿ السؤال الخامس ﴾ ما سبب نزول هذه الآيات ؟ (الجواب) يروى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله ما حل ، فأراد أن يدعوا على الذين انهزموا ، وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف .

قوله تعالى : ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية وجهان (أحدهما) قال ابن عباس رد الله إليه الوحى وشفعه فى قومه (والثانى) قال قوم ولعله ما كان رسولا صاحب وحى قبل هذه الواقعة ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولا ، وهو المراد من قوله (فاجتباه ربه) والذين أنكروا الكرامات والإرهاص لا بد وأن يختاروا القول الأول . لأن احتباسه فى بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاصاً ولا كرامة فلا بد وأن يكون معجزة وذلك يقتضى أنه كان رسولا فى تلك الحالة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب على أن فعل العبد خلق الله تعالى بقوله (فجعله من الصالحين) فالآية تدل على أن ذلك الصلاح إنما حصل بجعل الله وخلقه ، قال الجبائى يحتمل أن يكون معنى جعله أنه أخبر بذلك ، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح إذ الجعل يستعمل فى اللغة فى هذه المعانى (والجواب) أن هذين الوجهين اللذين ذكرتم مجاز ، والأصل فى الكلام الحقيقة .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام علمها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (ليزلقونك) بضم الياء وفتحها ، وزلقه وأزلقه بمعنى ويقال زلق

الرأس وأزلقه حلقه ، وقرىء ليزهقهونك من زهقت نفسه وأزهقها ، ثم فيه وجوه (أحدها) أنهم من أشدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك من قولهم : نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلى . أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله ، قال الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا فى موطن نظراً يزل مواطىء الأقدام

وأنشد ابن عباس لما مر بأقوام حددوا النظر إليه :

نظروا إلى بأعين محمرة نظر التيوس إلى شفار الجازر

وبين الله تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم فى حال قراءة النبى صلى الله عليه وسلم القرآن وهو قوله (لما سمعوا الذكر) (الثانى) منهم من حمله على الإصابة بالعين ، وههنا مقامان (أحدهما) الإصابة بالعين ، هل لها فى الجملة حقيقة أم لا ؟ (الثانى) أن بتقدير كونها صحيحة ، فهل الآية ههنا مفسرة بها أم لا ؟

﴿ المقام الأول ﴾ من الناس من أنكر ذلك ، وقال تأثير الجسم فى الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة ، وههنا لا مماسة ، فامتنع حصول التأثير .

واعلم أن المقدمة الأولى ضعيفة ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن ، فإن كان الأول لم يمتنع اختلاف النفوس فى جواهرها وماهياتها ، وإذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً اختلافها فى لوازمها وآثارها ، فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية فى التأثير ، وإن كان الثانى لم يمتنع أيضاً أن يكون مزاج إنسان واقعاً على وجه مخصوص يكون له أثر خاص ، وبالجملة فالاحتمال العقلى قائم ، وليس فى بطلانه شبهة فضلا عن حجة ، والدلائل السمعية ناطقة بذلك ، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال « العين حق » وقال « العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر » .

﴿ والمقام الثانى ﴾ من الناس من فسر الآية بهذا المعنى قالوا : كانت العين فى بنى أسد ، وكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شىء ، فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله ، إلا عانه ، فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول فى رسول الله ﷺ ذلك ، فعصمه الله تعالى ، وطعن الجبائى فى هذا التأويل وقال : الإصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشىء ، والقوم ما كانوا ينظرون إلى الرسول عليه السلام على هذا الوجه ، بل كانوا يمقتونه ويبغضونه ، والنظر على هذا الوجه لا يقتضى الإصابة بالعين .

واعلم أن هذا السؤال ضعيف ، لأنهم وإن كانوا يبغضونه من حيث الدين لعلهم كانوا يستحسنون فصاحته ، وإيراده الدلائل . وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية .

وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

ثم قال تعالى ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ وهو على ما افتتح به السورة ﴿ وما هو ﴾ أى وما هذا القرآن الذى يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ فإنه تذكير لهم ، وبيان لهم ، وأدلة لهم ، وتنبيه لهم على ما فى عقولهم من أدلة التوحيد ، وفيه من الآداب والحكم ، وسائر العلوم ما لا حد له ولا حصر ، فكيف يدعى من يتلوه مجنوناً ، ونظيره مما يذكرون ، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٦٨ – سورة القلم

(مكية وهي إثنتان وخمسون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ٦٨ القلم

مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ٦٨ القلم

وصف به (فمن يأتيكم بماء معين) جار أو ظاهر سهل المأخذ . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة *
الملك فكأنه أحيا ليلة القدر .

﴿سورة القلم مكية إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣ ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية وآياتها اثنتان وخمسون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ن) بالسكون على الوقف وقرىء بالكسر وبالفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصباً اذكر لافتحاً كما سبق في فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنه علم للسورة ثم إن جعل اسماً للحرف مسروداً على نمط التعديد للتحدي بأحد الطريقين المذكورين في موقعه أو اسماً للسورة منصوباً على الوجه المذكور أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف فالواو في قوله تعالى (والقلم) * للقسم وإن جعل مقسماً به فهي للعطف عليه وأياً ما كان فإن أريد به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للإعظام بالإقسام به ظاهر وإن أريد به الجنس فاستحقاق ما في أيدي الناس لذلك لكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز قائلا لكفى به فضلا موجباً لتعظيمه وقرىء بإدغام النون في الواو (وما يسطرون) الضمير لأصحاب القلم المدلول عليهم بذكره وقيل للقلم على أن المراد * به أصحابه كأنه قيل وأصحاب القلم ومسطوراتهم على أن ما موصولة أو وسطرهم على أنها مصدرية وقيل للقلم نفسه بإسناد الفعل إلى الآلة وإجرائه مجرى العقلاء لإقامته مقامهم وقيل المراد بالقلم ما خط اللوح خاصة والجمع للتعظيم وقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) جواب القسم والباء متعلقة بمضمر ٢ هو حال من الضمير في خبرها والعامل فيها معنى النفي كأنه قيل أنت برىء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه صلى الله عليه وسلم والإيذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها والمراد تنزيهه صلى الله عليه وسلم عما كانوا ينسبونه صلى الله عليه وسلم إليه من الجنون حسداً وعداوة ومكابرة مع جزمهم بأنه صلى الله عليه وسلم في غاية الغايات القاصية ونهاية

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ٦٨ القلم

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ٦٨ القلم

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ٦٨ القلم

بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ٦٨ القلم

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ٦٨ القلم

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ٦٨ القلم

---

٣ النهايات النائية من حصانة العقل ورزانة الرأى (وإن لك) بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم
وتحملك لأعباء الرسالة (لأجراً) لثواباً عظيماً لايقادر قدره (غير ممنون) مع عظمه كقوله تعالى عطاء
٤ غير مجذوذ أو غير ممنون عليك من جهة الناس فإنه عطاؤه تعالى بلا توسط (وإنك لعلى خلق عظيم)
لايدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم مالا يكاد يحتمله البشر وسئلت عائشة رضى الله
عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن قد أفلح المؤمنون والجملتان
٥ معطوفتان على جواب القسم (فستبصر ويبصرون) قال ابن عباس رضى الله عنهما فستعلم ويعلمون
يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل وقيل فستبصر ويبصرون فى الدنيا بظهور عاقبة أمركم بغلبة الإسلام
واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيباً معظماً فى قلوب العالمين وكونهم أذلة صاغرين قال
٦ مقاتل هذا وعيد بعذاب يوم بدر (بأيكم المفتون) أى أيكم الذى فتن بالجنون والباء مزيدة أو بأيكم
الجنون على أن المفتون مصدر كالمعقول والمجلود أو بأى الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم
بفريق الكافرين أى فى أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بأبى جهل بن هشام والوليد
٧ ابن المغيرة وأضربهما كقوله تعالى سيعلمون غداً من الكذاب الأشر وقوله تعالى (إن ربك هو أعلم
بمن ضل عن سبيله) تعليل لما ينبىء عنه ماقبله من ظهور جنونهم بحيث لايخفى على أحد وتأكيداً لما
فيه من الوعد والوعيد أى هو أعلم بمن ضل عن سبيله تعالى المؤدى إلى سعادة الدارين وهام فى تيه
الضلال متوجهاً إلى مايفيضه إلى الشقاوة الأبدية وهذا هو المجنون الذى لايفرق بين النفع والضرر
بل يحسب الضرر نفعاً فيؤثره والنفع ضرراً فيهجره (وهو أعلم بالمهتدين) إلى سبيله الفائزين بكل
مطلوب الناجين عن كل محذور وهم العقلاء المراجيح فيجزى كلا من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب
٨ والثواب وإعادة هو أعلم لزيادة التقرير والفاء فى قوله تعالى (فلا تطع المكذبين) لترتيب النهى على
ماينبىء عنه ماقبله من اهتدائه صلى الله عليه وسلم وضلالهم أو على جميع مافصل من أول السورة وهذا

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ٦٨ القلم

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ٦٨ القلم

هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ٦٨ القلم

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ٦٨ القلم

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ٦٨ القلم

تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم أى دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب فى ذلك أو نهى
عن مداهنتهم ومداراتهم بإظهار خلاف ما فى ضميره صلى الله عليه وسلم استجلاباً لقلوبهم لا عن طاعتهم
٩ كما ينبىء عنه قوله تعالى (ودوا لو تدهن) فإنه تعليل للنهى أو الانتهاء وإنما عبر عنها بالطاعة للمبالغة فى
* الزجر والتنفير أى أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم فى بعض الأمور (فيدهنون) أى فهم يدهنون حينئذ
أو فهم الآن يدهنون طمعاً فى إدهانك وقيل هو معطوف على تدهن داخل فى حيز لو والمعنى ودوا
لو يدهنون عقيب إدهانك ويأباه ما سيأتى من بدئهم بالإدهان على إدهانهم أمر محقق لا يناسب إدخاله
تحت التمنى وأياً ما كان فالمعتبر فى جانبهم حقيقة الإدهان الذى هو إظهار الملاينة وإضمار خلافها وأما
فى جانبه صلى الله عليه وسلم فالمعتبر بالنسبة إلى ودادتهم هو إظهار الملاينة فقط وأما إضمار خلافها فليس
فى حيز الاعتبار بل هم فى غاية الكراهة له وإنما اعتباره بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم وفى بعض
المصاحف فيدهنوا على أنه جواب التمنى المفهوم من ودوا أو أن ما بعده حكاية لودادتهم وقيل على
أنه عطف على تدهن بناء على أن لو بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها
مصدر يقع مفعولا لودوا كأنه قيل ودوا أن تدهن فيدهنوا وقيل لو على حقيقتها وجوابها محذوف
١٠ وكذا مفعول ودوا أى ودوا إدهانك لو تدهن فيدهنون لسروا بذلك (ولا تطع كل حلاف) كثير
الحلف فى الحق والباطل تقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل
١١ فى الزجر (مهين) حقير الرأى والتدبير (هماز) عياب طعان (مشاء بنميم) مضرب نقال للحديث من
١٢ قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم فإن النميم والنميمة السعاية (مناع للخير) أى بخيل أو مناع
* للناس من الخير الذى هو الإيمان والطاعة والإنفاق (معتد) متجاوز فى الظلم (أثيم) كثير الآثام
١٣ (عتل) جاف غليظ من عتله إذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) بعد ما عد من مثالبه (زنيم) دعى مأخوذ
من الزنمة وهى الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى متدلية فى حلقها وفى قوله تعالى بعد ذلك دلالة على
أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه قيل هو الوليد بن المغيرة فإنه كان دعياً فى قريش وليس من سنخهم
ادعاه المغيرة بعد ثمانى عشرة من مولده وقيل هو الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده فى زهرة

أن كان ذا مال وبنين ﴿١٤﴾ ٦٨ القلم

إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴿١٥﴾ ٦٨ القلم

سنسمه على الخرطوم ﴿١٦﴾ ٦٨ القلم

إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴿١٧﴾ ٦٨ القلم

ولا يستثنون ﴿١٨﴾ ٦٨ القلم

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴿١٩﴾ ٦٨ القلم

---

١٤ (أن كان ذا مال وبنين) متعلق بقوله تعالى لا تطع أى لا تطع من هذه مثالبه لأن كان متمولا مستظهراً
١٥ بالبنين وقوله تعالى (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) استئناف جار مجرى التعليل للنهى وقيل
متعلق بما دل عليه الجملة الشرطية من معنى الجحود والتكذيب لا بجواب الشرط لأن ما بعد الشرط لا يعمل
فيما قبله كأنه قيل لكونه مستظهراً بالمال والبنين كذب بآياتنا وفيه أنه بدل أن مدار تكذيبه كونه
ذا مال وبنين من غير أن يكون لسائر قبائحه دخل فى ذلك وقرىء أأن كان على معنى ألأن كان ذا مال
كذب بها أو أتطيعه لأن كان ذا مال وقرىء إن كان بالكسر والشرط للمخاطب أى لا تطع كل حلاف
١٦ شارطاً يساره لأن إطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه فى الطاعة (سنسمه على الخرطوم) بالكى
على أكرم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله قيل أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقيت علامتها وقيل
١٧ معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها عن سائر الكفرة (إنا بلوناهم) أى أهل مكة بالقحط
* بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (كما بلونا أصحاب الجنة) وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم
هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقى وكان ينادى الفقراء وقت
الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وما فى أسفل الأكداس وما أخطأه القطاف من العنب وما بقى
على البساط الذى يبسط تحت النخلة إذا صرمت فكان يجتمع لهم شىء كثير فلما مات أبوهم قال بنوه
* إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى (إذ أقسموا ليصرمنها
١٨ مصبحين) ليقطعنها داخلين فى الصباح (ولا يستثنون) أى لا يقولون إن شاء الله وتسميته استثناء
مع أنه شرط من حيث إن مؤداه مؤدى الاستثناء فإن قولك لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا
١٩ أن يشاء الله بمعنى واحد أو ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعله أبوهم والجملة مستأنفة (فطاف
* عليها) أى على الجنة (طائف) بلاء طائف وقرىء طيف (من ربك) مبتدأ من جهته تعالى (وهم نائمون)
غافلون عما جرت به المقادير .

فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ٦٨ القلم

فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ ٦٨ القلم

أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ٦٨ القلم

فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ٦٨ القلم

أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ٦٨ القلم

وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ٦٨ القلم

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ٦٨ القلم

---

٢٠ (فأصبحت كالصريم) كالبستان الذى صرمت ثماره بحيث لم يبق منها شىء فعيل بمعنى مفعول وقيل كالليل
أى احترقت فاسودت وقيل كالنهار أى يبست وابيضت سميا بذلك لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه
٢١،٢٢ وقيل الصريم الرمال (فتنادوا) أى نادى بعضهم بعضاً (مصبحين) داخلين فى الصباح (أن اغدوا)
* أى اغدوا على أن أن مفسرة أو بأن اغدوا على أنها مصدرية أى اخرجوا غدوة (على حرثكم) بستانكم
* وضيعتكم وتعدية الغدو بعلى لتضمينه معنى الإقبال أو الاستيلاء (إن كنتم صارمين) قاصدين للصرم
٢٣ (فانطلقوا وهم يتخافتون) أى يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة وخفى وخفت وخفد ثلاثتها فى
٢٤ معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش (أن لايدخلنها) أى الجنة (اليوم عليكم مسكين) أن مفسرة لما
فى التخافت من معنى القول وقرىء بطرحها على إضمار القول والمراد بنهى المسكين عن الدخول المبالغة
٢٥ فى النهى عن تمكينه من الدخول كقولهم لا أرينك ههنا (وغدوا على حرد قادرين) أى على نكد
لا غير من جاردت السنة إذا لم يكن فيها مطر وحاردت الإبل إذا منعت درها والمعنى أنهم أرادوا أن
يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلا على النكد
والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة أو وغدوا على محاردة جنتهم
وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها أى غدوا حاصلين على النكد والحرمان
مكان كونهم قادرين على الانتفاع وقيل الحرد الحرد وقد قرىء بذلك أى لم يقدروا إلا على حنق بعضهم
لبعض لقوله تعالى يتلاومون وقيل الحرد القصد والسرعة أى غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين
٢٦ عند أنفسهم على صرامها وقيل هو علم للجنة (فلما رأوها قالوا) فى بديهة رؤيتهم (إنا لضالون) أى
طريق جنتنا وما هى بها .

بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ٦٨ القلم

قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ٦٨ القلم

قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ٦٨ القلم

فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ٦٨ القلم

قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ٦٨ القلم

عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ٦٨ القلم

٢٧ (بل نحن محرمون) قالوه بعد ما تأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر مضربين عن قولهم الأول أى لسنا
٢٨ ضالين بل نحن محرمون حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أى رأيا أو سنا (ألم أقل
لكم لولا تسبحون) لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خبث نيتكم وقد كان قال لهم حين عزموا
على ذلك اذكروا الله وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول
٢٩ النقمة فعصوه فعيرهم كما ينبيء عنه قوله تعالى (قالوا سبحان ربنا إن كنا ظالمين) وقيل المراد بالتسبيح
٣٠ الاستثناء لاشتراكهما فى التعظيم أو لأنه تنزيه له تعالى عن أن يجرى فى ملكه ما لا يشاؤه (فأقبل بعضهم
على بعض يتلاومون) أى يلوم بعضهم بعضاً فإن منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من
٣٢،٣١ سكت راضياً به ومنهم من أنكره (قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين) متجاوزين حدود الله (عسى ربنا
* أن يبدلنا) وقرىء بالتشديد أى يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة (خيراً منها إنا إلى
ربنا راغبون) راجون العفو طالبون الخير وإلى لانتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع عن مجاهد
تابوا فأبدلوا خيرا منها وروى أنهم تعاقدوا وقالوا إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا فدعوا
الله تعالى وتضرعوا إليه فأبدلهم الله تعالى من ليلتهم ما هو خير منها قالوا إن الله تعالى أمر جبريل عليه
السلام أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها
وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إن القوم لما أخلصوا وعرف الله منهم الصدق أبدلهم جنة يقال
لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً وقال أبو خالد اليمانى دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود
منها كالرجل الأسود القائم وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار فقال لقد
كلفتنى تعباً وعن الحسن رحمه الله تعالى قول أصحاب الجنة إنا إلى ربنا راغبون لا أدرى إيماناً كان ذلك
منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة فتوقف فى أمرهم والأكثرون على أنهم تابوا
وأخلصوا حكاه القشيرى .

كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ٦٨ القلم

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ٦٨ القلم

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ٦٨ القلم

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ٦٨ القلم

أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ٦٨ القلم

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ٦٨ القلم

أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ٦٨ القلم

---

٣٣ (كذلك العذاب) جملة من مبتدأ وخبر مقدم لإفادة القصر والألف واللام للعهد أى مثل الذى بلونا
* به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر) أعظم وأشد (لوكانوا يعلمون)
٣٤ أنه أكبر لاحترزوا عما يؤديهم إليه (إن للمتقين) أى من الكفر والمعاصى (عندربهم) أى فى الآخرة
* أوفى جوار القدس (جنات النعيم) جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص عن شائبة ماينغصه من الكدورات
٣٥ وخوف الزوال كما عليه نعيم الدنيا وقوله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) تقرير لما قبله من فوز
المتقين بجنات النعيم ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين فيها
فإنهم كانوا يقولون إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ماهى فى الدنيا
وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر
يقتضيه المقام أى أنحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد
٣٦ الرد وتشديده (مالكم كيف تحكمون) تعجيباً من حكمهم واستبعاداً له وإيذاناً بأنه لايصدر عن عاقل
٣٧،٣٨ (أم لكم كتاب) نازل من السماء (فيه تدرسون) أى تقرؤن (إن لكم فيه لما تخيرون) أى ماتتخيرونه
وتشتهونه وأصله أن لكم بالفتح لأنه مدروس فلما جىء باللام كسرت ويجوز أن يكون حكاية للمدروس
كما هو كقوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين وتخير الشىء واختياره أخذ
٣٩ خيره (أم لكم أيمان علينا) أى عهود مؤكدة بالأيمان (بالغة) متناهية فى التوكيد وقرئت بالنصب
* على الحال والعامل فيها أحد الظرفين (إلى يوم القيامة) متعلق بالمقدر فى لكم أى ثابتة لكم إلى يوم
القيامة لانخرج عن عهدتها حتى نحكمكم يومئذ ونعطيكم ماتحكمون أو ببالغة أى أيمان تبلغ ذلك اليوم
* وتنتهى إليه وافرة لم تبطل منها يمين (إن لكم لما تحكمون) جواب القسم لأن معنى أم لكم علينا أيمان

سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) ٦٨ القلم

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ٦٨ القلم

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ٦٨ القلم

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ٦٨ القلم

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) ٦٨ القلم

٤٠ أم أقسمنا لكم (سلهم) تلوين للخطاب و توجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاطهم عن
* رتبة الخطاب أى سلهم مبكتاً لهم (أيهم بذلك) الحكم الخارج عن العقول (زعيم) أى قائم يتصدى
٤١ لتصحيحه (أم لهم شركاء) يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم (فليأتوا بشركائهم إن كانوا
صادقين) فى دعواهم إذلا أقل من التقليد وقد نبه فى هذه الآيات الكريمة على أن ليس لهم شىء يتوهم
أن يتشبثوا به حتى التقليد الذى لايفلح من تشبث بذيله وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين
٤٢ فى الآخرة (يوم يكشف عن ساق) أى يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل فى
ذلك وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب قال حاتم [أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها *
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا] وقيل ساق الشىء أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان
أى يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عياناً وتنكيره للتهويل
أو التعظيم وقرىء تكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول والفعل للساعة أو الحال وقرىء نكشف
بالنون وتكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أى دخل فى الكشف وناصب
الظرف فليأتوا أو مضمر مقدم أى اذكر يوم الخ أو مؤخر أى يوم يكشف عن ساق الخ يكون من
* الأهوال وعظائم الأحوال مالا يبلغه الوصف (ويدعون إلى السجود) توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إياه
* فى الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم فى ذلك (فلا يستطيعون) لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على أنهم
يقصدون السجود فلا يتأتى منهم عن ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه تعقم أصلابهم أى ترد عظاماً
بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض وفى الحديث وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً أى فقارة واحدة
٤٣ (خاشعة أبصارهم) حال من مرفوع يدعون على أن أبصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع
* إلى الأبصار لظهور أثره فيها (ترهقهم) تلحقهم وتغشاهم (ذلة) شديدة (وقد كانوا يدعون إلى السجود)
فى الدنيا والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير أو لأن المراد به الصلاة أو مافيها من السجود والدعوة
* دعوة التكليف (وهم سالمون) متمكنون منه أقوى تمكن أى فلا يجيبون إليه ويأبونه وإنما ترك ذكره
٤٤ ثقة بظهوره (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) أى كله إلى فانى أكفيك أمره أى حسبك فى الإيقاع

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ٦٨ القلم

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ٦٨ القلم

أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ٦٨ القلم

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ٦٨ القلم

لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ٦٨ القلم

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ ٦٨ القلم

به والانتقام منه أن تكل أمره إلى وتخلى بيني وبينه فإني عالم بما يستحقه من العذاب ومطيق له والفاء
لترتيب الأمر على ماقبلها من أحوالهم المحكية أى وإذا كان حالهم فى الآخرة كذلك فذرنى ومن يكذب
بهذا القرآن وتوكل على فى الانتقام منه وقوله تعالى (سنستدرجهم) استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب *
المستفاد من الأمر السابق إجمالا والضمير لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى يكذب باعتبار
لفظها أى سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإحسان وإدامة الصحة وازدياد النعمة (من حيث *
لايعلمون) أنه استدراج وهو الإنعام عليهم بل يزعمون أنه إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنه
سبب لهلاكهم (وأملى لهم) وأمهلهم ليزدادوا إثماً وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم (إن كيدى ٤٥
متين) لايوقف عليه ولا يدفع بشىء وتسمية ذلك كيداً لكونه فى صورة الكيد (أم تسألهم) على الإبلاغ ٤٦
والإرشاد (أجراً) دنيوياً (فهم) لأجل ذلك (من مغرم) أى غرامة مالية (مثقلون) مكلفون حملا *
ثقيلا فيعرضون عنك (أم عندهم الغيب) أى اللوح أو المغيبات (فهم يكتبون) منه مايحكمون ويستغنون ٤٧
به عن علمك (فاصبر لحكم ربك) وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم (ولا تكن كصاحب الحوت) ٤٨
أى يونس عليه السلام (إذ نادى) فى بطن الحوت (وهو مكظوم) مملوء غيظاً والجملة حال من ضمير *
نادى وعليها يدور النهى لا على النداء فإنه أمر مستحسن ولذلك لم يذكر المنادى وإذ منصوب بمضاف
محذوف أى لايكن حالك كحاله وقت ندائه أى لايوجد منك ماوجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى
ببلائه (لولا أن تداركه نعمة من ربه) وقرىء رحمة وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وحسن تذكير الفعل ٤٩
للفصل بالضمير وقرىء تداركته وتداركه أى تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لو لا أن كان يقال
فيه تتداركه (لنبذ بالعراء) بالأرض الخالية من الأشجار (وهو مذموم) مليم مطرود من الرحمة والكرامة *
وهو حال من مرفوع نبذ عليها يعتمد جواب لولا لأنها هى المنتفية لا النبذ بالعراء كما مر فى الحال
الأولى والجملة الشرطية استئناف وارد لبيان كون المنهى عنه أمراً محذوراً مستتبعاً للغائلة وقوله تعالى
(فاجتباه ربه) عطف على مقدر أى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه بأن رد إليه الوحى وأرسله إلى ٥٠

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ٦٨ القلم

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ٦٨ القلم

* مائة ألف أو يزيدون وقيل استنبأه إن صح أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة (فجعله من الصالحين) من الكاملين فى الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه أولى . روى أنها نزلت بأحد حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المنهزمين من المؤمنين وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف

٥١ (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) وقرىء ليزلقونك بفتح الياء من زلقه بمعنى أزلقه ويزهقونك وإن هى المخففة واللام دليلها والمعنى أنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى أى لو أمكنه بنظره الصرع لفعله أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين إذ قد روى أنه كان فى بنى أسد عيانون فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفى الحديث أن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر ولعله

* من خصائص بعض النفوس وعن الحسن دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية (لما سمعوا الذكر) أى وقت سماعهم بالقرآن على أن لما ظرفية منصوبة بيزلقونك وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند

* سماعه (ويقولون) لغاية حيرتهم فى أمره عليه الصلاة والسلام ونهاية جهلهم بما فى تضاعيف القرآن من تعاجيب الحكم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمسة بأحكام الطبائع ولتنفير الناس عنه

* (إنه لمجنون) وحيث كان مدار حكمهم الباطل ماسمعوه منه عليه الصلاة والسلام رد ذلك ببيان علو

٥٢ شأنه وسطوع برهانه فقيل (وما هو إلا ذكر للعالمين) على أنه حال من فاعل يقولون مفيدة لغاية بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوه تلك العظيمة أى يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين أى تذكير وبيان لجميع مايحتاجون إليه من أمور دينهم فأين من أنزل عليه ذلك وهو مطلع على أسراره طراً ومحيط بجميع حقائقه خبراً مما قالوا وقيل معناه شرف وفضل لقوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مذكراً وشرفاً للعالمين لاريب فيه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم .

(سورة ن)

هي من أوائل مانزل من القرآن بمكة فقد نزلت على ماروى عن ابن عباس اقرأ باسم ربك ثم هذه ثم المزمل ثم المدثر وفي البحر أنها مكية بلا خلاف فيها بين أهل التاويل وفي الاتقان استثنى منها انا بلوناهم الى يعلمون ومن فاصبر الى الصالحين فانه مدني حكاه السخاوى وفي جمال القراء وآيها ثنتان وخمسون آية بالاجماع ومناسبتها لسورة الملك على ماقيل من جهة ختم تلك بالوعيد وافتتاح هذه به وقال الجلال السيوطي في ذلك إنه تعالى لما ذكر في آخر الملك التهديد بتغوير الماء استظهر عليه في هذه باذهاب ثمر اصحاب البستان في ليلة بطائف طاف عليهم وهم نائمون فاصبحوا ولم يجدوا له أثراً حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق واذا كان هذا في الثمار وهي اجرام كثيفة فالماء الذي هو لطيف أقرب الى الاذهاب ولهذا قال

سبحانه هنا وهم نائمون فاصبحت كالصريم وقال جل وعلا هنالك ان اصبح ماؤكم غورا اشارة الى انه يسرى عليه فى ليلة كما أسرى على الثمر فى ليلة انتهى ولا يخلو عن حسن وقال أبو حيان فيه انه ذكر فيما قبل اشياء من أحوال السعداء والاشقياء وذكر قدرته الباهرة وعلمه تعالى الواسع وانه عز وجل لوشاء لخسف بهم الارض أولأرسل عليهم حاصباً وكان ماأخبربه سبحانه هو ماأوحى به الى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فتلاه عليه الصلاة والسلام وكان الكفار ينسبونه في ذلك مرة الى الشعر ومرة الى السحر ومرة الى الجنون فبدأ جل شأنه هذه السورة الكريمة ببراءته صلى الله تعالى عليه وسلم مما كانوا ينسبونه اليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه فقال عز من قائل

﴿بسم الله الرحمن الرحيم ن﴾ بالسكون على الوقف وقرأ الاكثرون بسكون النون وادغامها في واو ﴿والقلم﴾ بغنة عند بعض وبدونها عند آخرين وقرىء بكسر النون وقرأ ابن عباس وابن أبى اسحق وعيسى بخلاف عنه بفتحها وكل لالتقاء الساكنين وجوز أن يكون الفتح باضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وان يكون ذلك نصبا باضمار اذكر ونحوه لافتحا وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على انه علم للسورة ثم ان جعل اسما لحرف مسرودا على نمط التعديد للتحدى على ما اشتهر وبين فى موضعه أو اسما للسورة منصوبا على الوجه المذكور أو مرفوعا على انه خبر مبتدأ محذوف فلواو فى قوله تعالى والقلم للقسم وان جعل مقسما به فهى للعطف عليه على الشائع واختار السلف ان ن من المتشابه وغير واحد من الخلف انه هنا من أسماء الحروف وقالوا يؤيد ذلك انه لو كان اسم جنس أو علما لاعرب منونا أو ممنوعا من الصرف ولكتب كما يتلفظ به وكون كتابته كما ترى لنية الوقف واجراء الوصل مجراه خلاف الاصل وكون خط المصحف لا يقاس مسلم الا ان الاصل اجراؤه على القياس ما أمكن وقيل هو اسم لحوت عليه الارض يقال له اليهموت بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء ففى حديث رواه الضياء فى المختار والحاكم وصححه وجمع عن ابن عباس خلق الله تعالى النون فبسطت الارض عليه فاضطرب النون فمادت الارض فاثبتت بالجبال ثم قرأ ن والقلم الخ وروى ذلك عن مجاهد وروى عن ابن عباس أيضا والحسن وقتادة والضحاك انه اسم الدواة وأنكر الزمخشرى ورود النون بمعنى الدواة في اللغة أو في الاستعمال المعتد به وقال ابن عطية يحتمل أن يكون لغة لبعض العرب أو لفظة أعجمية عربية وأنشد قول الشاعر اذا ما الشوق برح بى اليهم ☆ ألقت النون بالدمع السجوم

والاولون منهم من فسر القلم بالذى خط فى اللوح المحفوظ ما هو كائن الى يوم القيامة ومنهم من فسره بقلم الملائكة الكرام الكاتبين وال فيه على التفسيرين للعهد والآخرون منهم من فسره بالجنس على ان التعريف فيه جنسى ومنهم وهم قليل من فسره بما تقدم أيضا لكن الظاهر من كلامهم ان الدواة ليست عبارة عن الدواة المعروفة بل هي دواة خلقت يوم خلق ذلك القلم وعن معاوية بن قرة يرفعه ان ن لوح من نور والقلم قلم من نور يجرى بما هو كائن الى يوم القيامة وعن جعفر الصادق انه نهر من أنهار الجنة وفي البحر لعله لا يصح شىء من ذلك أى من جميع ماذكر في ن ما عدا كونه اسما من اسماء الحروف وكانه ان كان مطلعا على الروايات التى ذكرناها لم يعتبر تصحيح الحاكم فيما روى أولا عن ابن عباس ولا كون أحد رواته الضياء في المختارة التى هي في الاعتبار قرينة من الصحاح ولا كثرة راويه عنه وهو الذى يغلب على الظن لكثرة الاختلاف فيما روى عنه في تعيين المراد به حتى انه روى عنه انه آخر حرف من حروف الرحمن وان هذا الاسم الجليل فرق في الر وحم ون ولا يخفى انه ان أريد الحوت أو نهر فى الجنة يصير الكلام من باب كم الخليفة وألف بادنجانة وأما ان أريد الدواة فالتنكير آب عن ذلك أشد الاباء على انه كما سمعت

عن الزمخشري لغة لم تثبت والرد عليه انما يتأتى باثبات ذلك عن الثقات وأنى به وذكر صاحب القاموس لاينتهض حجة على انه معنى لغوي وفي صحة الروايات كلام والبيت الذي انشده ابن عطية لم يثبت عربيا وكونه بمعنى الحوت اطلق على الدواة مجازا بعلاقة المشابهة فان بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سوادا من النقس يكتب به لايخفى مافيه من السماجة فان ذلك البعض لم يشتهر حتى يصح جعله مشبها به مع انه لادلالة للمنكر على ذلك الصنف بعينه وكونه بمعنى الحرف مجازا عنها أدهي وأمر كذا قيل وللبحث في البعض مجال وللقصاص هذا الفصل روايات لايعول عليها ولا ينبغي الاصغاء اليها ثم ان استحقاق القلم الاعظام بالاقسام به اذا أريد به قلم اللوح الذي جاء في الاخبار انه أول شيء خلقه الله تعالى أو قلم الكرام الكاتبين ظاهر وأما استحقاق مافي أيدي الناس اذا أريد به الجنس لذلك فلكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز وجل لكفى به فضلا موجبا لتعظيمه والضمير في قوله سبحانه ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي يكتبون اما للقلم مرادا به قلم اللوح وعبر عنه بضمير الجمع تعظيما له أو له مرادا به جنس ما به الخط فضمير الجمع لتعدده لكنه ليس بكاتب حقيقة بل هو آلة للكاتب فالاسناد اليه اسناد الى الآلة مجازا والتعبير عنه بضمير العقلاء لقيامه مقامهم وجعله فاعلا أو للكتبة أو الحفظة المفهومين من القلم أولهم باعتبار أنه أريد بالقلم أصحابه تجوزا أو بتقدير مضاف معه ولا يخفى ما هو الاوجه من ذلك وأما كونه لما وهي بمعنى من فتكلف بارد والظاهر فيها أنها اما موصولة أي والذي يسطرونه أو مصدرية أي وسطرهم ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسم والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفي ومجنون خبر ما والباء الاولى للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال من الضمير في الخبر والعامل فيها معنى النفي والمعنى انتفى عنك الجنون في حال كونك ملتبساً بنعمة ربك أي منعما عليك بما أنعم من حصافة الرأي والنبوة والشهامة واختاره ناصر الدين وقريب منه جعل الباء للسببية والجار والمجرور متعلقا بالنفي كالظرف اللغو كأنه قيل انتفى عنك الجنون بسبب نعمة ربك عليك وجوز أن تكون البـاء للملابسة في موضع الحال والعامل مجنون وباؤه لا تمنع العمل لانها مزيدة وتعقبه ناصر الدين بان فيـه نظرا من حيث المعنى ووجه بأن محصله على هذا التقدير أنه انتفى عنك الجنون وقت التباسك بنعمة ربك ولا يفهم منه انتفاء مطلق الجنون عنه صلى الله تعالى عليه وسـلم وهل المراد الا هذا وقيـل عليه لايخفى انه وارد على مااختاره هو أيضا أي وذلك لان المعنى حينئذ انتفى عنك ملتبسا بنعمة ربك الجنون ولا يفهم منه انتفاؤه عنه عليه الصلاة والسـلام في جميع الاوقات وهو المراد واجيب بأن تلك الحالة لازمة له صلى الله تعالى عليه وسلم غير منفكة عنه فنفيه عنه فيها مستلزم لنفيه عنه دائما وسائر الحالات وتعقب بأن هذا متأت على كلا التقديرين لا اختصاص له باحدهما دون الآخر وأنت خبير بانه فرق بينهما اذ يصير المعنى على تقدير كون العامل مجنون كما أشير اليه انه انتفى عنك الجنون الواقع عليك حالة الالتباس المذكور وهذا يدل على أمكان وقوعه في تلك الحالة بل على تحققه أيضا وهو معنى لاغ اذ كيف يتصور وجود الجنون ووقوعه وقت التباسه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنعمة ومن جملتها الحصافة ولا يرد هذا على التقدير المختار اذ الانتفاء المفهوم حينئذ لايكون واردا على الجنون المقيد بما ذكر وهو وان كان مقيـدا فيه أيضا لاضير به لكون قيـده لازما لذات المنفي عنه كما عرفت هذا وقيل اذا حمل الباء على السببية واعتبر الظرف لغوا يظهر عدم جواز تعلقه بما بعده من حيث المعنى ✡ ظهور نار القرى ليلا على علم ✡ ولهم في الجملة الحالية والحال اذا وقعت بعد النفي كلام ذكره الخفاجي وحقق انه حينئذ انما يلزم انتفاء مقارنة الحال لذي الحال لانفيها نفسها فتدبر ولا تغفل وجوز كون بنعمة ربك قسما متوسطا في الكلام لتأكيده من غير تقدير جواب

أو يقدر له جواب يدل عليه الكلام المذكور واستظهر هذا الوجه أبو حيان والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى معارج الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه صلى الله تعالى عليه وسلم والايذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه في العلو الى غاية لاغاية وراءها والمراد تنزيهه صلى الله تعالى عليه وسلم عما كانوا ينسبونه اليه صلى الله تعالى عليه وسلم من الجنون حسداً وعداوة ومكابرة فحاصل الكلام أنت منزه عما يقولون ﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك أعباء الرسالة ﴿ لَأَجْرًا ﴾ لثوابا عظيما لايقادر قدره ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى مقطوع مع عظمه أو غير ممنون عليك من جهة الناس فانه عطاؤه تعالى بلا واسطة أو من جهته تعالى لانك حبيب الله تعالى وهو عز وجل أكرم الاكرمين ومن شيمة الاكارم أن لايمنوا بانعامهم لاسيما اذا كان على أحبابهم كما قال

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى ✽ أيادى لم تمنن وان هي جلت

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لايدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم مالايحتمله أمثالك من أولى العزم وفي حديث مسلم وأبى داود والامام أحمد والدارمى وابن ماجه والنسائى عن سعد بن هشام قال قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها ياأم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فان خلق نبى الله كان القرآن وأرادت بذلك على ماقيل ان مافيه من المكارم كله كان فيه صلى الله تعالى عليه وسلم ومافيه من الزجر عن سفساف الاخلاق كان منزجرا به عليه الصلاة والسلام لانه المقصود بالخطاب بالقصد الاول كذلك لنثبت به فؤادك وربما يرجع الى هذا قولها كما في رواية ابن المنذر وغيره عن أبى الدرداء انه سألها عن خلقه عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه وقال العارف بالله تعالى المرصفى أرادت بقولها كان خلقه القرآن تخلقه باخلاق الله تعالى لكنها لم تصرح به تادباً منها وفي الكشف أنه أدمج في هذه الجملة انه صلى الله تعالى عليه سلم متخلق باخلاق الله عز وجل بقوله سبحانه عظيم وزعم بعضهم أن في الآية رمزا الى أن الاخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون وانه كلما كان الانسان أحسن أخلاقا كان أبعد عن الجنون ويلزم من ذلك أن سوء الاخلاق قريب من الجنون ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أى الجنون كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن المنذر عن ابن جبير وعبد بن حميد عن مجاهد وأطلق على المجنون لانه فتن اى محن بالجنون وقيل لان العرب يزعمون ان الجنون من تخبيل الجن وهم الفتان للفتاك منهم والباء مزيدة في المبتدأ وجوز ذلك سيبويه أو الفتنة فالمفتون مصدر كالمعقول والمجلود أى الجنون كما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن وابى الجوزاء وهو بناء على أن المصدر يكون على وزن المفعول كما جوزه بعضهم والباء عليه للملابسة أو باى الفريقين منكم الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين أى فى أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بأبى جهل والوليد بن المغيرة واضرابهما والباء على هذا بمعنى في وقدر بأى الفريقين منكم دفعا لما قيل من ان الخطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجماعة قريش ولا يصح أن يقال لجماعة وواحد في أيكم زيد وأيد الاعتراض بأن قوله تعالى فستبصر ويبصرون خطاب له عليه الصلاة والسلام خاصة وجواب التأييد أن الخطاب بظاهره خص برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجرى الكلام على نهج السوابق ولا يتنافر لكنه ليس كالسوابق فى الاختصاص حقيقة لدخول الامة فيه أيضا فيصح تقدير بأى الفريقين وادعى صاحب الكشف ان هذا أوجه الاوجه لافادته التعريض وسلامته عن استعمال النادر يعنى زيادة الباء في المبتدأ وكون المصدر على زنة المفعول واليه ذهب الفراء ويؤيده قراءة ابن أبى عبلة في أيكم وأياماكان فالظاهر ان بايكم المفتون معمول لماقبله على سبيل التنازع والمراد فستعلم

ويعلمون ذلك يوم القيامة حين يتدين الحق من الباطل وروى ذلك عن ابن عباس وقيل فستبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغلبة الاسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيبا معظما في قلوب العالمين وكونهم أذلة صاغرين ويشمل هذا ما كان يوم بدر وعن مقاتل ان ذلك وعيد بعذاب يوم بدر وقال أبو عثمان المازنى ان الكلام قد تم عند قوله تعالى ويبصرون ثم استأنف قوله سبحانه بأيكم المفتون على انه استفهام يراد به التردد بين أمرين معلوم نفى الحكم عن أحدهما وتعين وجوده للآخر وهو كما ترى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ استئناف لبيان ما قبله وتأكيد لما تضمنه من الوعد والوعيد أى هو سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدى الى سعادة الدارين وهام في تيه الضلال متوجها الى ما يقتضيه من الشقاوة الابدية ومزيد النكال وهذا هو المجنون الذى لا يفرق بين النفع والضر بل يحسب الضرر نفعا فيؤثره والنفع ضررا فيهجره وهو عز وجل أعلم بالمهتدين الى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين عن كل محذور وهم العقلاء المراجيح فيجزى كلا من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب وفي الكشاف ان ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون أو يكون وعيدا ووعدا وأنه سبحانه أعلم بجزاء الفريقين قال في الكشف هو على الاول تذييل مؤكد لما رمز اليه في السابق من أن المفتون من قرفك به جار على أسلوب المؤكد فى عدم التصريح ولكن على وجه أوضح فان قوله تعالى بأيكم المفتون لا تعيين فيه بوجه وهذا بدل هو أعلم بالمجنون وبالعاقل يدل على أن المجنون بهذا الاعتبار لا بما توهموه وثبت لهم صرف الضلال في عين هذا الزعم وعلى الثانى هو تذييل أيضا ولكن على سبيل التصريح لان بمن ضل أقيم مقام بهم وبالمهتدين أقيم مقام بكم ولعل ماعتبرناه أملا بالفائدة وكأن تقديم الوعيد ليتصل بما أشعر به أولا والتعبير في جانب الضلال بالفعل للايماء بأنه خلاف ماتقتضيه الفطرة وزيادة هو وأعلم لزيادة التقرير مع الايذان باختلاف الجزاء والفاء في قوله تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ لترتيب النهى على ماينبيء عنه ماقبله من اهتدائه صلى الله تعالى عليه وسلم وضلالهم أو على جميع مافصل من أول السورة وهذا تهييج والهاب للتصميم على معاصاتهم أى دم على ماأنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب في ذلك وجوز أن يكون نهيا عن مداهنتهم ومداراتهم باظهار خلاف مافي ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم استجلابا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقة وينبيء عنه قوله تعالى ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ ﴾ لانه تعليل للنهى أو للانتهاء وانما عبر عنها بالطاعة للمبالغة في التنفير أى أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الامور ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أى فهم يدهنون حينئذ أو فهم الآن يدهنون طمعا في ادهانك فالفاء للسببية داخلة على جملة مسببة عما قبلها وقدر المبتدأ لمكان رفع بالفعل والفرق بين الوجهين أن المعنى على أنهم تمنوا لو تدهن فتترتب مداهنتهم على مداهنتك ففيه ترتب احدى المداهنتين على الاخرى فى الخارج ولو فيه غير مصدرية وعلى الثانى هي مصدرية والترتب ذهنى على ودادتهم وتمنيهم وجوز أن تكون الفاء لعطف يدهنون على تدهن على انه داخل معه فى حيز لو متمنى مثله والمعنى ودوا لو يدهنون عقيب ادهانك وماتقدم أبعد عن القيل والقال وأياما كان فالمعتبر في جانبهم حقيقة الادهان الذى هو اظهار الملاينة واضمار خلافها واما في جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبر بالنسبة الى ودادتهم هو اظهار الملاينة فقط وأما اضمار خلافها فليس في حيز الاعتبار بل هم في غاية الكراهة له وانما اعتباره بالنسبة اليه عليه الصلاة والسلام وفي بعض المصاحف كما قال هرون فيدهنوا بدون نون الرفع فقيل هو منصوب في جواب التمنى المفهوم من ودوا وقيل انه عطف على تدهن بناء على أن لو بمنزلة ان الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا

كأنه قيل ودوا أن تدهن فيدهنوا ولعل هذا مراد من قال أنه عطف على توهم أن وجمهور النحاة على أن لو على حقيقتها وجوابها محذوف وكذا مفعول ودوا أى ودوا ادهانك لو تدهن فيدهنون لسروا بذلك (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ) كثيرالحلف في الحق والباطل وكفى بهذا مزجرة لمن اعتاد الحلف لانه جعل فاتحة المثالب وأساس الباقى وهو يدل على عدم استشعار عظمة الله عز وجل وهو أم كل شر عقداً وعملا وذكر بعضهم ان كثرة الحلف مذمومة ولو في الحق لما فيها من الجرأة على اسمه جل شأنه وهذا النهى للتهييج والالهاب أيضا أى دم على ماأنت عليه من عدم طاعة كل حلاف (مَهِينٍ) حقيرالرأى والتدبير وقال الرمانى المهين الوضيع لاكثاره من القبيح من المهانة وهي القلة وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن قتادة انه قال هو المكثار في الشر وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنه الكذاب (هَمَّازٍ) عياب طعان قال أبو حيان هو من الهمز وأصله في اللغة الضرب طعناً باليد او بالعصا ونحوها ثم استعير للذى ينال بلسانه قال منذر بن سعيد وبعينه واشارته (مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) نقال للحديث من قوم الى قوم على وجه الافساد بينهم فان النميم والنميمة مصدران بمعنى السعاية والافساد وقيل النميم جمع نميمة لايريدون به الجنس واصل النميمة الهمس والحركة الخفيفة ومنه اسكت الله تعالى نامته اى ماينم عليه من حركته (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ) أى بخيل ممسك من منع معروفه عنه اذا أمسكه فاللام للتقوية والخير على ما قيل المال أو مناع الناس الخير وهو الاسلام من منعت زيدا من الكفر اذا حماته على الكف فذكر الممنوع منه كأنه قيل مناع من الخير دون الممنوع وهو الناس عكس وجه الاول والتعميم هنا لك وعدم ذكر الممنوع منه أوقع (مُعْتَدٍ) مجاوز فى الظلم حده (أَثِيمٍ) كثير الآثام وهي الافعال البطئة عن الثواب والمراد بها المعاصى والذنوب (عُتُلٍّ) قال ابن عباس الشديد الفاتك وقال الكلبي الشديد الخصومة بالباطل وقال معمر وقتادة الفاحش اللئيم وقيل هو الذى يعتل الناس أى يجرهم الى حبس أو عذاب بعنف وغلظة ويقال عتنه بالنون كما يقال عتله باللام كما قال ابن السكيت وقرأ الحسن عتل بالرفع على الذم (بَعْدَ ذَلِكَ) أى المذكور من مثالبه وقبائحه وبعد هنا كثم الدالة على التفاوت الرتبى فتدل على أن مابعد أعظم في القباحة وفي الكشف أشعر كلام الزمخشرى أنه متعلق بعتل فلزم تباينه من الصفات السابقة وتباين مابعده أيضا لانه في سلكه (زَنِيمٍ) دعى ملحق بقوم ليس منهم كما قال ابن عباس والمراد به ولد الزنا كما جاء بهذا اللفظ عنه رضى الله تعالى عنه وأنشد الحسان

زنيم تداعته الرجال زيادة ✡ كما زيد في عرض الاديم الاكارع

وكذا جاء عن عكرمة وأنشد

زنيم ليس يعرف من أبوه ✡ بغى الام ذوحسب لئيم

من الزنمة بفتحات وهي مايتدلى من الجلد في حلق المعز والفلقة من أذنه تشق فتترك معلقة وانما كان هذا أشد المعايب لان الغالب أن النطفة اذا خبثت خبث الناشىء منها ومن ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم فرخ الزنا أى ولده لايدخل الجنة فهو محمول على الغالب فانه في الغالب لخباثة نطفته يكون خبيثا لاخير فيه اصلا فلا يعمل عملا يدخل به الجنة وقال بعض الاجلة هذا خارج مخرج التهديد والتعريض بالزانى وحمل على أنه لايدخل الجنة مع السابقين لحديث الدارمى عن عبد الله بن عمر مرفوعا لا يدخل الجنة عاق ولا ولد زنية ولا منان ولامدمن خمر فانه سلك في قرن العاق والمنان ومدمن الخمر ولا ارتياب أنهم عند أهل السنة ليسوا من زمرة من لا يدخل الجنة أبدا وقيل المراد انه لا يدخل الجنة بعمل أبويه اذا مات صغيرا بل يدخلها بمحض فضل الله تعالى

ورحمته سبحانه كأطفال الكفار عند الجمهور وروى ابن جبير عن ابن عباس أن الزنيم هو الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بالزنمة وفي رواية ابن أبي حاتم عنه هو الرجل يمر على القوم فيقولون رجل سوء والمآل واحد وعنه أيضا أنه المعروف بالابنة ولايخفى أن المأبون معدن الشرور بل من لم يصل فى ذلك الامر الشنيع الى تلك المرتبة كذلك في الاغلب ولاحاجة الى كثرة الاستشهاد في هذا الباب وفى قول الشاعر الا كتفاء وهو

ولكم بذلت لك المودة ناصحا * فغدوت تسلك فى الطريق الاعوج

ولكم رجوتك للجميل وفعله * يوما فنادانى النهى لاترتج

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا تطع كل حلاف الخ فلم يعرف حتى نزل عليه الصلاة والسلام بعد ذلك زنيم فعرفناه له زنمة فى عنقه كزنمة الشاة واستشكل هذا بان الزنيم عليه ليس صفة ذم فضلا عن كونه أعظم فيه من الصفات التى قبل ذلك على مايفيده بعد ذلك ولا يكاد يحسن تعليل النهى به على أن من المعلوم أن ليس المراد بالموصوف بهذه الصفات شخصا بعينه لمكان كل ويحمل ماجاء فى الروايات من أنه الوليد بن المغيرة المخزومى وكان دعيا في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده أو الحكم طريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو الاخنس ابن شريق وكان أصله من ثقيف وعداده في زهرة أو الاسود بن عبد يغوث أو أبو جهل على بيان سبب النزول وقيل في ذلك ان المراد ذمه بقبيح الخلق بعد ذمه بما تقدم وهو كما ترى فتأمل فلملك تظفر بماريح البال ويزيح الاشكال وقوله تعالى ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ بتقدير لام التعليل وهو متعلق بقوله سبحانه لاتطع أى لاتطع من هذه مثالبه لان كان متمولا متقويا بالبنين وقوله سبحانه ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ استئناف جار مجرى التعليل للنهى وجوز أن يكون لان متعلقا بنحو كذب ويدل عليه الجملة الشرطية ويقدر مقدما دفعا لتوهم الحصر كأنه قيل كذب لان كان الخ والمراد انه بطر نعمة الله تعالى ولم يعرف حقها ولم يجوز تعلقه بقال المذكور بعد لان مابعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولعل من يقول باطراد التوسع في الظرف يجوز ذلك وكذا من يجعل اذا هنا ظرفية وقال أبو على الفارسى يجوز تعلقه بعتل وان كان قد وصف وتعقبه أبو حيان بأنه قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين وقيل متعلق بزنيم ويحسن ذلك اذا فسر بقبيح الافعال وقرأ الحسن وابن أبى اسحق وأبو جعفر وأبو بكر وحمزة وابن عامر أأن كان على الاستفهام وحقق الهمزتين حمزة وسهل الثانية باقيهم على ما في البحر وقال بعض قرأ أبو بكر وحمزة بهمزتين وابن عامر بهمزة ومدة والمعنى أكذب بها لان كان ذا مال أو أطيعه لان كان الخ وقرأ نافع في رواية اليزيدى عنه ان كان بالكسر على أن شرط الغنى في النهى عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهى عن قتل الاولاد بمعنى النهى في غير ذلك يعلم بالطريق الاولى فيثبت بدلالة النص والشرط والعلة في مثله مما لا مفهوم له أو على أن الشرط للمخاطب وحاصل المعنى لا تطع كل حلاف الخ شارطا يساره لان اطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة وفيه تنزيل المخاطب منزلة من شرط ذلك وحققه زيادة للالهاب والثبات وتعريضا بمن يحسب الغنى مكرمة والظاهر أن الجملة الشرطية بعد استئناف وقيل هذا مما اجتمع فيه شرطان وليسا من الشروط المترتبة الوقوع فالمتأخر لفظا هو المتقدم والمتقدم لفظا هو شرط في الثاني فهو كقوله

فان عثرت بعدها إن وألت * نفسى من هاتا فقولا لالعا

وقرأ الحسن أئذا على الاستفهام وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله أساطير الاولين ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ سنجعل له سمة وعلامة ﴿ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ أى على الانف وهو من باب اطلاق مشفر على شفة غليظة لانسان كما سنشير اليه

ان شاء الله تعالى وعبر بذلك عن غاية الاذلال لان السمة على الوجه شين حتى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عنه في الحيونات ولعن فاعله فكيف على أكرم موضع منه وهو الانف لتقدمه وقد قيل الجمال في الانف وعليه قول بعض الادباء

وحسن الفتى في الانف والانف عاطل ✡ فكيف اذا ما الخال كان له حليـا

وجعلوه مكان العزة والحمية واشتقوا منه الانفة وقالوا الانف في الانف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين وقالوا في الذليل جدع أنفه ورغم أنفه ومنه قول جرير

لما وضعت على الفرزدق ميسمى ✡ وعلى البعيث جدعت أنف الاخطل

وفي لفظ الخرطوم استهانة لانه لا يستعمل الا في الفيل والخنزير ففي التعبير عن الانف بهذا الاسم ترشيح لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الاذلال والمراد سنهينه في الدنيا ونذله غاية الاذلال وكون الوعيد المذكور في الدنيا هو المروى عن قتادة وذهب اليه جمع الا انهم قالوا المعنى سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى فيكون ذلك كالوسم على الانف ثابتا بينا كما تقول سأطوقك طوق الحمامة أي أثبت لك الامر بينا فيك وزاد ذلك حسنا ذكر الخرطوم انتهى وبينه وبين ما تقدم فرق لا يخفى وقال بعض هو في الآخرة ومن القائلين بأن هذا وعيد بامر يكون فيها من قال هو تعذيب بنار على أنفه في جهنم وحكى ذلك عن المبرد وقال آخرون منهم يوسم يوم القيامة على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره وقال أبو العالية ومقاتل واختاره الفراء المراد يسود وجهه يوم القيامة قبل دخول النار وذكر الخرطوم والمراد الوجه مجازا ومن القائلين بانه يكون في الدنيا من قال هو وعيد بما أصابه يوم بدر فانه خطم فيه بالسيف فبقيت سمة على خرطومه وروى هذا عن ابن عباس والمعروف في كتب السير والاحاديث ان أبا جهل قتل يوم بدر والباقين ماعدا الحكم ماتوا قبله فلم يسم أحد منهم بذلك الوسم وكذا الحكم لم يعلم انه وسم بذلك وان كان لم يمت قبل وعن النضر بن شميل أن الخرطوم الخمر وأنشد

تظل يومك في لهو وفي لعب ✡ وأنت بالليل شراب الخراطيم

وان المعنى سنحده على شربها وتعقب بانه تنفيه الرواية بان أولئك الكفرة هلكوا قبل تحريم الخمر ماعدا الحكم وهو لم يثبت انه حد على انهم لم يكونوا ممتزمى الاحكام والدراية أيضا لتعقيد اللفظ وفوات فخامة المعنى (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ) أى أصبنا أهل مكة ببلية وهي القحط بدعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف (كَمَا بَلَوْنَا) أى مثل ما بلونا فالكاف في محل نصب صفة مصدر مقدر وما مصدرية وقيل بمعنى الذى أى كالبلاء الذى بلوناه (أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) المعروف خبرها عندهم كانت بأرض اليمن بالقرب منهم قريبا من صنعاء لرجل كان يؤدى حق الله تعالى منها فمات فصارت الى ولده فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله تعالى منها فكان ماذكره الله تعالى وكانت على ما أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جرير بأرض في اليمن يقال لها صوران بينها وبين صنعاء ستة أميال وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس هم ناس من الحبشة كانت لابيهم جنة وكان يطعم منها المساكين فمات فقال بنوه ان كان أبونا لاحمق حين يطعم المساكين فاقسموا على أن لا يطعموا منها مسكينا . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال كانت لشيخ من بني اسرائيل وكان يمسك قوت سنته ويتصدق بالفضل وكان بنوه ينهونه عن الصدقة فلما مات أقسموا على منع المساكين وفي رواية أنها كانت لرجل صالح على فرسخين من صنعاء وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل وما في أسفل الاكداس وما أخطأه القطاف من العنب وما بقى على البساط تحت النخلة اذا صرمت فكان يجتمع لهم شيء كثير فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الامر ونحن أولو عيال فحلفوا ليصرمنها وقت الصباح

خفية عن المساكين كما قال عز وجل ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ معمول لبلونا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن من ثمارها بعد استوائها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح وهذا حكاية لقسمهم لا على منطوقهم والا لقيل لنصرمنها بنون المتكلمين وكلا الامرين جائز في مثله ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ قيل أى ولا يقولون ان شاء الله تعالى وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث أن مؤداه مؤدى الاستثناء فان قولك لاخرجن ان شاء الله تعالى ولا أخرج الا أن يشاء الله تعالى بمعنى واحد وقال الامام أصل الاستثناء من الثنى وهو الكف والرد وفي التقييد بالشرط رد لانعقاد ذلك اليمين فاطلاقه عليه حقيقة وقيل أى ولا يثنون عما هموا به من منع المساكين والظاهر على القوانين عطفه على أقسموا فمقتضى الظاهر وما استثنوا وكأنه انما عدل عنه اليه استحضارا للصورة لما فيها من نوع غرابة لان اللائق في الحلف على ما يلزم منه ترك طاعة الاستثناء وفى الكشف هو حال اى غير مستثنين وفي العدول الى المضارع نوع تعبير وتنبيه على مكان خطئهم وفيه رمز الى ماذكرنا وقيل المعنى ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم وعليه هو معطوف على قوله تعالى ليصرمنها ومقسم عليه أو على قوله سبحانه مصبحين الحل وهو معنى لا غبار عليه ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أى أحاط نازلا على الجنة ﴿طَائِفٌ﴾ أى بلاء محيط فهو صفة لمحذوف وقول قتادة طائف أى عذاب بيان لحاصل المعنى ونحوه قول ابن عباس أى أمر وعن الفراء تخصيص الطائف بالامر الذى يأتى بالليل وكان ذلك على ما قال ابن جريج عنقا من نار خرج من وادى جنتهم وقيل الطائف هو جبريل عليه السلام اقتلعها وطاف بها حول البلد ثم وضعها قرب مكة حيث مدينة الطائف اليوم ولذلك سميت بالطائف وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الماء والشجر والاعناب غيرها ولا يصح هذا عندى كالقول بأن الطائف المدينة المذكورة كانت بالشام فنقلها الله تعالى الى الحجاز بدعوة ابراهيم عليه السلام وكذا القول بانها طافت على الماء في الطوفان ولو قيل كل ذلك على ظاهره حديث خرافة لا يعد حديث خرافة وقرأ النخعى طيف ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ مبتدىء من جهته عز وجل ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ في موضع الحال والمراد أتاها ليلا كما روى عن قتادة وقيل المراد وهم غافلون غفلة تامة عما جرت به المقادير والاول أظهر من جهة السباق واللحاق ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذى صرمت ثماره بحيث لم يبق فيها شىء فعيل بمعنى مفعول وقال ابن عباس كالرماد الاسود وهو بهذا المعنى لغة خزيمة وعنه أيضا الصريم رملة باليمن معروفة لا تنبت شيئاً وقال مؤرج كالرملة انصرمت من معظم الرمل وهى لا تنبت شيئا ينفع وقال منذر والفراء وجماعة الصريم الليل والمراد أصبحت محترقة تشبه الليل في السواد وقال الثورى كالصبح من حيث ابيضت كالزرع المحصود وقال بعضهم يسمى كل من الليل والنهار صريما لانصرام كل عن صاحبه وانقطاعه عنه ﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعضهم بعضا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ لقسمهم السابق ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ أى أى خرجوا على أن أن تفسيرية واغدوا بمعنى اخرجوا أو بان اغدوا على أن أن مصدرية وقبلها حرف جر مقدر وهي يجوز أن توصل بالامر على الاصح ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ أى بستانكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أى قاصدين للصرم وقطع الثمار فاغدوا وقيل يحتمل أن يكون المراد ان كنتم أهل عزم واقدام على رأيكم من قولهم سيف صارم وليس بذاك وظاهر كلام جار الله ان غدا بمعنى بكر يتعدى بالى وعدى ههنا بعلى لتضمين الغد ومعنى الاقبال كما في قولهم يغدى عليه بالجفنة ويراح أى فاقبلوا على حرثكم باكرين ويجوز أن يكون من غدا عليه اذا غار بان يكون قد شبه غدوهم لقطع الثمار بغدو الجيش على شىء لان معنى الاستعلاء والاستيلاء موجود فيه وهو الصرم والقطع

ويكون هنـاك استعارة تبعية وجوز ان تعتبر الاستعارة تمثيلية وقال أبو حيان الذى في حفظى ان غدا يتعدى بعلى كما في قوله

وقد غدو على ثبة كرام ✽ نشاوى واجدين لمـا نشاء

وكذا بكر مرادفه كما في قوله

بكرت عليهم غدوة فرأيته ✡ قعودا لديه بالصريم عواذله

﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أى يتشاورون فيمابينهم بطريق الخافتة وخفى بفتح الفاء وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش والخفود للناقة التى تلقى ولدها قبل ان يستبين خلقه ﴿ أن لا يدخلنها اليوم﴾ أى الجنة ﴿عليكم مسكين﴾ ان مفسرة لما في التخافت من معنى القول او مصدرية والتقدير بان ويؤيد الاول قراءة عبد الله وابن ابى عبلة باسقاطها وعليه قيل هو بتقدير القول وقيل العامل فيه يتخافتون لتضمنه معنى القول وهو المذهب الكوفى فيه وفي امثاله واياما كان فالمراد بنهى المسكين عن الدخول المبالغة في النهى عن تمكينه منه كقولهم لا أرينك ههنا ﴿وغدوا على حرد﴾ أى منع كما قال ابو عبيدة وغيره من قولهم حاردت الابل اذا قلت ألبانها وحاردت السنة قل مطرها وخيرها والجار متعلق بقوله تعالى ﴿قادرين﴾ قدم للحصر ورعاية الفواصل أى وغدوا قادرين على منع لا غير والمعنى انهم عزموا على منع المساكين وطلبوا حرمانهم ونكدهم وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها الا على المنع والحرمان وذلك انهـم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان أو غدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها بدل كونهم قادرين على اصابة خيرها ومنافعها اى غدوا حاصلين على حرمان انفسهم مكان كونهم قادرين على الانتفاع والحصر على الاول حقيقى وعلى هـذا اضافى بالنسبة الى انتفاعهم من جنتهم والحرمان عليه خاص بهـم وجوز أن يكون على حرد متعلقا بغـدوا والمراد بالحرد حرد الجنة جيء به مشاكلة للحرث كأنه لمـا قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم عاقبهم الله تعالى بان حاردت جنتهم وحرموا خيرها فلم يغدوا على حرث وانما غدوا على حرد وقادرين من عكس الـكلام للتهكم أى قادرين على ماعزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين وقيل الحرد الحرد بفتح الراء وقد قرىء به وهو بمعنى الغيظ والغضب كما قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الاصمعى وأنشد

اذا جياد الخيل جاءت تردى ✡ مملوءة من غضب وحرد

أى لم يقدروا الا على أغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وروى هذا عن سفيان والسدى والحصر حقيقى ادعائى أو اضافى وقيل بمعنى القصد والسرعة وأنشد

أقبل سيل جاء من أمر الله ✡ يحرد حرد الجنة المغله

أى غدوا قاصدين الى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وروى هذا عن ابن عباس فعلى حرد ظرف مستقر حال من ضمير غدوا وقادرين حال أيضا الا انها حال مقدرة على ما قيل وقيل حال حقيقية بناء على القيد بعند أنفسهم وانمـا قيد به لان ثمار جنتهم هالكة فلا قدرة لهم على صرامها وقد فنيت وقال الازهرى حرد اسم قريتهم وفي رواية عن السدى اسم جنتهم ولا أظن ذلك مرادا وقيل الحرد الانفراد يقال حرد عن قومه اذا تنحى عنهم ونزل منفردا وكوكب حرود معتزل عن الكواكب والمعنى وغدوا الى جنتهم منفردين عن المساكين ليس أحد منهم معهم قادرين على صرامها وهو من باب التهكم وقيل قادرين على هذا القول من التقدير بمعنى التضييق أى مضيقين على المساكين اذ حرموهم ما

كان أبوهم ينيلهم منها وهو حال مقدرة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أول ما وقع نظرهم عليها ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ طريق جنتنا وماهي بها قاله قتادة وقيل لضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين وليس بذاك ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ قالوه بعد ما تأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر مضربين عن قولهم الاول اى لسنا ضالين بل نحن محرومون حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أحسنهم وأرجحهم عقلا ورأيا أو أوسطهم سنا ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون اليه من خبث نيتكم وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك اذكروا الله تعالى وتوبوا اليه عن هذه النية الخبيثة من فوركم وسارعوا الى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فعيرهم ويدل على هذا المعنى قوله تعالى ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لان التسبيح ذكر لله تعالى وانا كنا الخ ندامة واعتراف بالذنب فهو توبة والظاهر أنهم انما تكلموا بما كان يدعوهم الى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ولكن بعد خراب البصرة وقيل المراد بالتسبيح الاستثناء لالتقائهما في معنى التعظيم لله عز وجل لان الاستثناء تفويض اليه سبحانه والتسبيح تنزيه له تعالى وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم فكأنه قيل الم أقل لكم لولا تستثنون أى تقولون ان شاء الله تعالى وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى وابن المنذر عن ابن جريج وحكاه في البحر عن مجاهد وأبى صالح انهما قالا كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح كانقول نحن ان شاء الله تعالى وجعله بعض الحنفية استثناء اليوم فعنده لو قال لزوجته أنت طالق سبحان الله لا تطلق ونسب الى الامام ابن الهمام وادعى أنه قاله في فتاويه ووجه بان المراد بسبحان الله فيها ذكر انزه الله عز وجل من أن يخلق البغيض اليه وهو الطلاق فانه قد ورد أبغض الحلال الى الله تعالى الطلاق وأنكر بعض المتأخرين نسبته الى ذلك الامام المتقدم ونفى أن يكون له فتاوى واعترض التوجيه المذكور بما اعترض وهو لعمرى أدنى من أن يعترض عليه وأنا أقول أولى منه قول النحاس في توجيه جعل التسبيح موضع الاستثناء ان المعنى تنزيه الله تعالى أن يكون شيء الا بمشيئته وقد يقال لعل من قال ذلك بنى الأمر على صحة ما روى وان شرع من قبلنا شرع لنا اذا قصه الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم علينا من غير نكير وهذا على علاته أحسن مما قيل في توجيهه كما لا يخفى وقيل المعنى لولا تستغفرون ووجه التجوز يعلم مما تقدم ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ يلوم بعضهم بعضا فان منهم على ماقيل من أشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من سكت راضيا به ومنهم من أنكره ولا يأبى ذلك اسناد الافعال فيما سبق الى جميعهم لما علم في غير موضع ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا ﴾ أى يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خَيْرًا مِنْهَا ﴾ أى من تلك الجنة ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا ﴾ لا الى غيره سبحانه ﴿ رَاغِبُونَ ﴾ راجون العفو طالبون الخير والى لانتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع وعن مجاهد انهم تابوا فابدلوا خيرا منها وروى انهم تعاقدوا وقالوا أن أبدلنا الله تعالى خيرا منها لنصنعن كما صنع أبونا فدعوا الله عز وجل وتضرعوا اليه سبحانه فابدلهم الله تعالى من ليلتهم ماهو خير منها وقال ابن مسعود بلغنى أن القوم دعوا الله تعالى وأخلصوا وعلم الله تعالى منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل على البغل منها عنقود وقال أبو خالد اليمانى رأيت تلك الجنة وكل عنقود منها كالرجل الاسود القائم واستظهر أبو حيان أنهم كانوا مؤمنين أصابوا معصية وتابوا وحكى عن بعض أنهم كانوا من أهل الكتاب وعن التسترى أن المعظم يقولون انهم تابوا وأخلصوا وتوقف الحسن في ايمانهم فقال لادرى أكان قولهم انا الى ربنا راغبون ايمانا أو على حد مايكون من المشركين اذا اصابتهم الشدة وسئل قتادة عنهم أهم من

أهل الجنة أم من أهل النار فقال للسائل لقد كلفتني تعبا وقرأ نافع وأبو عمرو يبدلنا مشددا ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ جملة من مبتدا وخبر مقدم لافادة القصر وال للعهد أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة من الجدب الشديد وأصحاب الجنة مما قص عذاب الدنيا والكلام قيل وارد تحذيرا لهم كأنه لما نهاه سبحانه عن طاعة الكفار وخاصة رؤسائهم ذكر عز وجل أن تمردهم لما أتوه من المال والبنين وعقب جل وعلا بأنهما اذا لم يشكرا المنعم عليهما يؤل حال صاحبهما الى حال أصحاب الجنة مدمجا فيه ان خبث النية والزوي عن المساكين اذا أفضى بهم الى ماذكر فماندة الحق تعالى بعناد من هو على خلقه وأشرف الموجودات وقطع رحمه أولى بأن يفضي بأهل مكة الى البوار وقوله تعالى ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأشد تحذير عن العناد بوجه أبلغ وقوله سبحانه ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ نعي عليهم بالغفلة أي لو كانوا من أهل العلم لعلموا انه أكبر ولاخذوا منه حذرهم ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي من الكفر كما في البحر أو منه ومن المعاصي كما في الارشاد ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في الآخرة فانها مختصة به عز وجل اذ لا يتصرف فيها غيره جل جلاله أو في جوار قدسه ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ جنات ليس فيها الا النعيم الخالص عن شائبة ماينغصه من الكدورات وخوف الزوال وأخذ الحصر من الاضافة الى النعيم لافادتها التميز من جنات الدنيا والتعريض بان جنات الدنيا لغالب عليها النفص

طبعت على كدر وأنت تريدها ✽ صفوا من الاقذار والاكدار

وقوله تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ تقرير لما قبله من فوز المتقين ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله تعالى ان صح أنا نبعث كما يزعم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه لم يكن حالنا وحالهم الا مثل ماهي في الدنيا والالم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم ان يساوونا والهمزة للانكار والفاء للعطف والعطف على مقدر يقتضيه المقال أي فيحيف في الحكم فيجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ تعجبا من حكمهم واستبعادا له وايذانا بانه لايصدر من عاقل اذ معنى مالكم أي شيء حصل لكم من خلل الفكر وفساد الرأي ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ نازل من السماء ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الكتاب والجار متعلق بقوله تعالى ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تقرؤن فيه والجملة صفة كتاب وجوز أن يكون فيه متعلقا بمتعلق الخبر أو هو الصفة والضمير للحكم أو الامر وتدرسون مستأنف أو حال من ضمير الخطاب وقوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي للذي تختارونه وتشتهونه يقال تخير الشيء واختاره أخذ خيره وشاع في أخذما يريده مطلقا مفعول تدرسون اذ هو المدروس فهو واقع موقع المفرد وأصله أن لكم فيه ما تخيرون بفتح همزة أن وترك اللام في خبرها فلما جيء باللام كسرت الهمزة وعلق الفعل عن العمل ومن هنا قيل انه لا بدمن تضمين تدرسون معنى العلم ليجرى فيه العمل في الجمل والتعليق وجوز أن يكون هذا حكاية للمدروس كماهو عليه فيكون بعينه لفظ الكتاب من غير تحويل من الفتح للكسر وضمير فيه على الاول للكتاب وأعيد للتأكيد وعلى هذا يعود لامرهم أو للحكم فيكون محصل ما خط في الكتاب أن الحكم أو الامر مفوض لهم فسقط قول صاحب التقريب ان لفظ فيه لايساعده للاستغناء بفيه أولا من غير حاجة الى جعل ضمير فيه ليوم القيامة بقرينة المقام أو للمكان المدلول عليه بقوله تعالى عند ربهم وعلى الاستئناف هو للحكم أيضا وجوز الوقف على تدرسون على أن قوله تعالى ان لكم الخ استئناف على معنى ان كان لكم كتاب فلكم فيه ماتتخيرون وهو كما ترى والظاهر ان أم لكم الخ مقابل لما قبله نظرا الحاصل المعنى اذ محصله أفسد عقلكم حتى حكمتم بهذا أم جاءكم كتاب

فيه تخييركم وتفويض الامر اليكم وقرأ طلحة والضحاك أن لكم بفتح الهمزة واللام في لما زائدة كقراءة من قرأ الا أنهم ليأكلون الطعام بفتح همزة انهم وقرأ الاعرج آن لكم بالاستفهام على الاستئناف ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا ﴾ أى أقسام وفسرت بالعهود والطلاق الايمان عليها من اطلاق الجزء على الكل أو اللازم على الملزوم ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ أى أقصى ما يمكن والمراد متناهية في التوكيد وقرأ الحسن وزيد بن على بالغة بالنصب على الحال من الضمير المستتر في علينا أو لكم وقال ابن عطية من ايمان لتخصيصها بالوصف وفيه بعد ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ متعلق بالمقدر في لكم أى ثابتة لكم الى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها الا يومئذ اذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون أو متعلق ببالغة أى ايمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهى اليه وافرة لم يبطل منها يمين فالى على الاول لغاية الثبوت المقدر في الظرف فهو كاجل الدين وعلى الثانى لغاية البلوغ فهى قيد اليمين اى يمينا مؤكدا لا ينحل الى ذلك اليوم وليس من تأجيل المقسم عليه فى شىء اذ لا مدخل لبالغة في المقسم عليه فتأمل وقوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ جواب القسم لان معنى أم لكم ايمان علينا أم أقسمنا لكم وهو جار على تفسير الايمان بمعنى العهود لان العهد كاليمين من غير فرق فيجاب بما يجاب به القسم وقرأ الاعرج آن لكم بالاستفهام أيضا ﴿ سَلْهُمْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باسقاطهم عن رتبة الخطاب أى سلهم مبكتا لهم ﴿ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ ﴾ الحكم الخارجى عن دائرة العقول ﴿ زَعِيمٌ ﴾ قائم يتصدى لتصحيحه والجملة الاستفهامية في موضع المعمول الثانى لسل والفعل عند أبى حيان وجماعة معلق عنها لمكان الاستفهام وكون السؤال منزلا منزلة العلم لكونه سببا لحصوله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في دعواهم اذ لا أقل من التقليد وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به في تحقيق دعواهم حيث نبه جل شأنه على نفى الدليل العقلى بقوله تعالى مالكم كيف تحكمون وعلى نفى الدليل النقلى بقوله سبحانه أم لكم كتاب الخ وعلى نفى ان يكون الله تعالى وعدهم بذلك ووعد الكريم دين بقوله سبحانه أم لكم أيمان علينا الخ. وعلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقوله عز وجل أم لهم شركاء وقيل المعنى أم لهم آلهة عدوها شركاء في الالوهية تجعلهم كالمسلمين في الآخرة وقرأ عبد الله وابن أبى عبلة فليأتوا بشركهم والمراد به ما أريد بشركائهم ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ متعلق بقوله تعالى فليأتوا على الوجهين ويجوز تعلقه بمقدر كاذكر أو يكون كيت وكيت وقيل بخاشعة وقيل بترهقهم وأياما كان فالمراد بذلك اليوم عند الجمهور يوم القيامة والساق ما فوق القدم وكشفها والتشمير عنها مثل في شدة الامر وصعوبة الخطب حتى انه يستعمل بحيث لا يتصور ساق بوجه كما في قول حاتم

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها ✡ وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول الراجز عجبت من نفسى ومن أشفاقها ✡ ومن طواه الخيل عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها ✡ حمراء تبرى اللحم عن عراقها

وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب فانهن لا يفعلن ذلك الا اذا عظم الخطب واشتد الامر فيذهلن عن الستر بذيل الصيانة والى نحو هذا ذهب مجاهد وابراهيم النخعى وعكرمة وجماعة وقد روى أيضا عن ابن عباس أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى في الاسماء والصفات من طريق عكرمة عنه أنه سئل عن ذلك فقال اذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه في

الشعر فانه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر

صبرا عناق أنه شر باق ✡ قد سن لى قومك ضرب الاعناق ✡ وقامت الحرب بنا على ساق

والروايات عنه رضى الله تعالى عنه بهذا المعنى كثيرة وقيل ساق الشيء أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الانسان والمراد يوم يكشف عن أصل الامر فتظهر حقائق الامور وأصولها بحيث تصير عيانا واليه يشير كلام الربيع بن أنس فقد أخرج عبد بن حميد عنه انه قال فى ذلك يوم يكشف الغطاء وكذا ما أخرجه البيهقى على ابن عباس أيضا قال حين يكشف الامر وتبدوا الاعمال وفى الساق على هذا المعنى استعارة تصريحية وفى الكشف تجوز آخر أو هو ترشيح للاستعارة باق على حقيقته وتنكير ساق قيل للتهويل على الاول وللتعظيم على الثانى وقيل لا ينظر الى شيء منهما على الاول لان الكلام عليه تمثيل وهو لا ينظر فيه للمفردات أصلا وذهب بعضهم الى أن المراد بالساق ساقه سبحانه وتعالى وان الآية من المتشابه واستدل على ذلك بما أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد قال سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا وانكر ذلك سعيد بن جبير أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه انه سئل عن الآية فغضب غضبا شديداً وقال ان اقواما يزعمون ان الله سبحانه يكشف عن ساقه وانما يكشف عن الامر الشديد وعليه يحمل ما فى الحديث على الامر الشديد ايضا واضافته اليه عز وجل لتهويل امره وانه امر لا يقدر عليه سواه عز وجل وارباب الباطن من الصوفية يقولون بالظاهر ويدعون ان ذلك عند التجلى الصورى وعليه حملوا أيضا ما أخرجه اسحق بن راهويه فى مسنده والطبرانى والدار قطنى فى الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه وغيرهم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال يجمع الله الناس يوم القيامة وينزل الله فى ظلل من الغمام فينادى مناد يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذى خلقكم وصوركم ورزقكم أن يولى كل انسان منكم ماكان يعبد فى الدنيا ويتولى أليس ذلك عدلا من ربكم قالوا بلى قال فلينطلق كل انسان منكم الى ماكان يتولى فى الدنيا ويتمثل لهم ماكانوا يعبدون فى الدنيا ويمثل لمن كان يعبد عيسى عليه السلام شيطان عيسى وكذا يمثل لمن كان يعبد عزيرا حتى تمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقى أهل الاسلام جثوما فيتمثل لهم الرب عز وجل فيقال لهم مالكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس فيقولون ان لنا ربا ما رأيناه بعد فيقول فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه قالوا بيننا وبينه علامة ان رأيناه عرفناه قال وماهي قالوا يكشف عن ساق فيكشف عند ذلك الحديث وهو ونظائره من المتشابه عند السلف وقرأ ابن مسعود وابن أبى عبلة يكشف بفتح الياء مبنيا الفاعل وهي رواية عن ابن عباس وقرأ ابن هرمز نكشف بالنون وقرىء يكشف بالياء التحتية مضمومة وكسر الشين من أكشف اذا دخل فى الكشف ومنه اكشف الرجل فهو مكشف انقلبت شفته العليا وقرىء تكشف بالتاء الفوقية والبناء للفاعل وهو ضمير الساعة المعلومة من ذكر يوم القيامة أو الحال المعلومة من دلالة الحال وبها والبناء للمفعول وجعل الضمير للساعة أو الحال أيضا وتعقب بأنه يكون الاصل حينئذ يكشف الله الساعة عن ساقها مثلا ولو قيل ذلك لم يستقم لاستدعائه ابداء الساق واذهاب الساعة كما تقول كشفت عن وجهها القناع والساعة ليست سترا على الساق حتى تكشف وأجيب انها جعلت سترا مبالغة لان المخدرة تبالغ فى الستر جهدها فكانها نفس الستر فقيل تكشف الساعة وهذا كما تقول كشفت زيدا عن جهله اذا بالغت فى اظهار جهله لانه كان سترا على جهله يستر معايبه فابنته وأظهرته اظهارا لم يخف على أحد وقيل عليه ان الاذهاب حينئذ ادعائى

ولا يخفى ما فيه من التكلف ولا عبرة بما ذكر من المثال المصنوع واقل تكلفا منه جعل عن ساق بدل اشتمال من الضمير المستتر في الفعل بعد نزع الخافض منه والاصل يكشف عنها أي عن الساعة أو الحال فنزع الخافض واستتر الضمير وتعقب بأن ابدال الجار والمجرور من الضمير المرفوع لايصح بحسب قواعد العربية فهو ضغث على ابالة وتكلف على تكلف وقيل ان عن ساق نائب الفاعل وتعقب بأن حق الفعل التذكير كصرف عن هند ومر بدعد ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ توبيخا وتعنيفا على تركهم اياه في الدنيا وتحسيرا لهم على تفريطهم في ذلك ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم وعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أي ترد عظاما بلا مفاصل لاتنثنى عند الرفع والخفض وتقدم في حديث البخارى ومن معه ماسمعت وفي حديث تصير أصلاب المنافقين والكفار كصياصى البقر عظما واحدا والظاهر ان الداعى الله تعالى أو الملك وقيل هو مايرونه من سجود المؤمنين واستدل أبو مسلم بهذه الآية على ان يوم الكشف في الدنيا قال لانه تعالى قال ويدعون الى السجود ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف فيراد منه اما أخر أيام الشخص في دنياه حين يرى الملائكة واما وقت المرض والهرم والمعجزة ويدفع بما أشرنا اليه ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ حال من مرفوع يدعون على ان أبصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع الى الابصار لظهور أثره فيها ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تلحقهم وتغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ شديدة ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ في الدنيا والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير أو لان المراد به الصلوات المكتوبة كما قال النخعى والشعبى أو جميع الطاعات كما قيل والدعوة دعوة التكليف وقال ابن عباس وابن جبير كانوا يسمعون الاذان والنداء للصلاة فلا يجيبون ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ متمكنون منه أقوى تمكن أي فلا يجيبون اليه ويأبونه وترك ذكر هذا ثقة بظهوره ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي اذا كان حالهم ما سمعت فكل من يكذب بالقرآن الى واستكفنيه فان في مايفرغ بالك ويخلى همك وهو من بليغ الكلام يفيد ان المتكلم واثق بأنه يتمكن من الوفاء باقصى مايدور حول أمنية المخاطب وبما يزيد عليه وقد حققه جار الله بما حاصله ان من استكفى أحدا ترك الامر اليه والا كان استعانة لااستكفاء فاقيم الرادف أعنى التخلية وان يذره واياه مقام الاستكفاء مبالغة وانباء عن الكفاية البالغة كيف وهذا الكافى طلب الاستكفاء بقوله ذرني وأبرز ترك الاستكفاء في صورة المنع مبالغة على مبالغة فلو لم يكن شديد الوثوق بتمكنه من الوفاء أقصى التمكن وفوق مايحوم حول خاطر المستكفى لما كان للطلب على هذا الوجه الابلغ وجه ومن في موضع نصب اما عطفا على المنصوب في ذرنى أو على انه مفعول معه وقوله تعالى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق اجمالا والضمير لمن والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد في يكذب باعتبار لفظها أي سنستنزلهم الى العذاب درجة فدرجة بالامهال وادامة الصحة وازدياد النعمة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ انه استدراج بل يزعمون ان ذلك ايثار لهم وتفضل على المؤمنين مع انه سبب لهلاكهم ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ وأمهلهم ليزدادوا اثما وهم يزعمون ان ذلك لارادة الخير بهم ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ لايدفع بشيء وتسمية ذلك كيدا وهو ضرب من الاحتيال لكونه في صورته حيث انه سبحانه يفعل معهم ماهو نفع لهم ظاهرا ومراده عز وجل به الضرر لما علم من خبث جبلتهم وتماديهم في الكفر والكفران ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ ﴾ على الابلاغ والارشاد ﴿ أَجْرًا ﴾ دنيويا ﴿ فَهُمْ ﴾ لاجل ذلك ﴿ مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ أي غرامة مالية ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ مكلفون حملا ثقيلا فيعرضون عنك وهذه الجملة على ما قاله

ابن الشيخ معطوفة على قوله تعالى أم لهم شركاء ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أى المغيبات أو للوح وأطلق الغيب عليه مجازا لانه محل لكتابة المغيبات أو لظهور صورها بناء على الخلاف المعروف فيه والقرينة ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما يحكمون به ويستغنون بذلك عن علمك ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو امهالهم وتأخير نصرتك عليهم روى انه صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض عليه الصلاة والسلام نفسه على القبائل بمكة فنزلت وقيل أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو على الذين انهزموا باحد حين اشتد بالمسلمين الامر فنزلت وعليه تكون الآية مدنية ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام كما انه المراد من ذى النون الا انه فرق بين ذى وصاحب بان أبلغ من صاحب قال ابن حجر لاقتضائها تعظيم المضاف اليها والموصوف بها بخلافه ومن ثم قال سبحانه في معرض مدح يونس عليه السلام وذا النون والنهى عن اتباعه ولا تكن كصاحب الحوت اذ النون لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأشرف من لفظ الحوت ونقل مثل ذلك السرميني عن العلامة السهيلى وفرق بعضهم بغير ذلك مما هو مذكور في حواشينا على رسالة ابن عصام في علم البيان ﴿إِذْ نَادَى﴾ فى بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أى مملوء غيظا على قومه اذ لم يؤمنوا لما دعاهم الى الايمان وهو من كظم السقاء اذا ملأه ومن استعماله بهذا المعنى قول ذى الرمة

وأنت من حب مى مضمر حزنا ✡ عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهى لا على النداء فانه أمر مستحسن ولذا لم يذكر المنادى واذ منصوب بمضاف محذوف أى لا يكن حالك كحاله وقت ندائه أى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى بنحو بلائه عليه السلام ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وقرئ رحمة وتذكير الفعل على القراءتين لان الفاعل مؤنث مجازى مع الفصل بالضمير وقرأ عبدالله وابن عباس تداركته بتاء التأنيث وقرأ ابن هرمز والحسن والاعمش تداركه بتشديد الدال وأصله تتداركه فابدل التاء دالا وأدغمت الدال في الدال والمراد حكاية الحال الماضية على معنى لولا ان كان يقال فيه تتداركه ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ بالارض الخالية من الاشجار أى في الدنيا وقيل بعراء القيامة لقوله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ولا يخفى بعده ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ في موضع الحال من مرفوع نبذ وعليها يعتمد جواب لولا لان المقصود امتناع نبذه مذموما والا فقد حصل النبذ فدل على أن حاله كانت على خلاف الذم والغرض ان حالة النبذ والانتهاء كانت مخالفة لحالة الا لامة والابتداء لقوله سبحانه فالتقمه الحوت وهو مليم وفي الارشاد ان الجملة الشرطية استئناف وارد لبيان كون المنهى عنه أمرا محذورا مستتبعا للغائلة وقوله سبحانه ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ عطف على مقدر أى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه أى اصطفاه بان رد عز وجل اليه الوحى وأرسله الى مائة الف أو يزيدون وقيل استنبأه ان صح انه لم يكن نبيا قبل هذه الواقعة وانما كان رسولا لبعض المرسلين في أرض الشام ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الكاملين في الصلاح بان عصمه سبحانه من أن يفعل فعلا يكون تركه أولى وظاهر كلام بعضهم ان الجعل من الصالحين تفسير للاجتباء قيل وفسر الصالحين بالانبياء وهو مبنى على انه لم يكن قبل الواقعة نبيا واستدل بالآية على خلق الافعال لان جعله صالحا بجعل صلاحه وخلقه فيه وهو من جملة الافعال ولا قائل بالفرق والمعتزلة يؤولون ذلك تارة بالاخبار بصلاحه وأخرى باللطف به حتى صلح على انه يحتمل ان يراد بالصالحين الانبياء كما قيل فلا تفيد الآية أكثر من كون النبوة مجعولة وهو مما اتفق

عليه الفريقان فتدبر ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ ان هي المخففة واللام دليلها لانها لاتدخل بعد النافية ولذا تسمى الفارقة على عرف عند النحاة والمعنى انهم لشدة عداوتهم ينظرون اليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعني او يكاد يأكلني أي لو امكنه بنظره الصرع أو الاكل لفعله وجعل مبالغة في عداوتهم حتى كانها سرت من القلب والجوارح الى النظر فعاد يعمل عمل الجوارح وأنشدوا قول الشاعر

يتقارضون اذا التقوا في موطن ✡ نظرا يزل مواطىء الاقدام

او انهم يكادون يصيبونك بالعين اذ روى انه كان في بنى اسد عيانون فاراد بعضهم ان يعين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت وقال الكلبي كان رجل من العرب يمكث يومين او ثلاثة لا ياكل ثم يرفع جانب خبائه فيقول لم ار كاليوم ابلا ولا غنما احسن من هذه فتسقط طائفة منها وتهلك فاقترح الكفار منه ان يصيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاجابهم وانشد

قد كان قومك يحسبونك سيدا ✱ واخال انك سيد معيون

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وانزل عليه هذه الآية وقد قيل ان قراءتها تدفع ضرر العين وروى ذلك عن الحسن وفي كتاب الاحكام انها اصل في ان العين حق والاولى الاستدلال على ذلك بما ورد وصح من عدة طرق ان العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر وبما اخرجه احمد بسند رجاله كما قال الهيثمي ثقات عن ابى ذر مرفوعا ان العين لتولع بالرجل باذن الله تعالى حتى يصعد حالقا ثم يتردى منه الى غير ذلك من الاحاديث الكثيرة وذلك من خصائص بعض النفوس ولله تعالى ان يخص ماشاء منها بما شاء واضافته الى العين باعتبار ان النفس تؤثر بواسطتها غالبا وقد يكون التأثير بلا واسطتها بان يوصف للعائن شيء فتتوجه اليه نفسه فتفسده ومن قال ان الله تعالى أجرى العادة بخلق ماشاء عند مقابلة عين العائن من غير تأثير أصلا فقد سد على نفسه باب العلل والتاثيرات والاسباب والمسببات وخالف جميع العقلاء قاله ابن القيم وقال بعض أصحاب الطبائع انه ينبعث من العين قوة سمية تؤثر فيما نظره كما فصل في شرح مسلم وهذا لايتم عندى فيما لم يره ولا في نحو ماتضمنه حديث أبى ذر المتقدم آنفا ولا في اصابة الانسان عين نفسه كما حكاه المناوى فانه لايقتل الصل سمه ومن ذلك ماحكاه الغساني قال نظر سليمان بن عبد الملك في المرآة فاعجبته نفسه فقال كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبيا وكان أبو بكر صديقا وكان عمر فاروقا وعثمان حييا ومعاوية حليما ويزيد صبورا وعبد الملك سائسا والوليد جبارا وأنا الملك الشاب وأنا الملك الشاب فما دار عليه الشهر حتى مات ومثل ذلك ماقيل انه من باب التاثير في القوة المعروفة اليوم بالقوة الكهربائية عند الطباعيين المحدثين فقد صح ان بعض الناس يكرر النظر الى بعض الاشخاص من فوقه الى قدمه فيصرعه كالمغشى عليه وربما يقف وراءه جاعلا اصابعه حذاء نقرة رأسه ويوجه نفسه اليه حتى تضعف قواه فيغشاه نحو النوم ويتكلم اذ ذاك بما لايتكلم به في وقت آخر وأنا لاأزيد على القول بانه من تأثيرات النفوس ولا أكيف ذلك فالنفس الانسانية من أعجب مخلوقات الله عز وجل وكم طوى فيه اسرار وعجائب تتحير فيها العقول ولاينكرها الا مجنون أو جهول ولا يسعنى ان انكر العين لكثرة الاحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الاعصار ولا أخص ذلك بالنفوس الخبيثة كما قيل فقد يكون من النفوس الزكية والمشهور ان الاصابة لاتكون مع كراهة الشيء وبغضه وانما تكون مع استحسانه والى ذلك ذهب القشيرى وكانه يشير بذلك الى الطعن في صحة الرواية ههنا لان الكفار كانوا يبغضونه عليه الصلاة والسلام فلا تتأتى لهم أصابته بالعين وفيه

نظر وحكم العائن على ماقال القاضى عياض أن يجتنب وينبغى للاملام حبسه ومنعه عن مخالطة الناس كفا لضرره ماأمكن ويرزقه حينئذمن بيت المال هذاوقرأ نافع ليزلقونك بفتح الياءمن زلقه بمعنى أزلقه وقرأ عبد الله وابن عباس والاعمش وعيسى ليزهقونك بالهاء بدل اللام أى ليهلكونك ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أى وقت سماعهم القرآن وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند سماعه ولما كما أشرنا اليه ظرفية متعلقة بيزلقونك ومن قال انها حرف وجوب لوجوب ذهب الى أن جوابها محذوف لدلالة ما قبل عليه أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم فى أمره عليه الصلاة والسلام ونهاية جهلهم بما فى تضاعيف القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس عنه ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ وحيث كان مدار حكمهم الباطل ماسمعوا منه صلى الله تعالى عليه وسلم رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه فقيل ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ على انه حال من فاعل يقولون والرابط الواو فقط أو مع عموم العالمين كما قيل مفيد لغاية بطلان قولهم وتعجيب للسامعين من جراءتهم على التفوه بتلك العظيمة أى يقولون ذلك والحال انه ذكر للعالمين أى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون اليه من أمور دينهم فأين من أنزل عليه ذلك وهو مطلع على أسراره طرا ومحيط بجميع حقائقه خبرا مما قالوه وقيل معناه شرف وفضل لقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وعموم العالمين لما فيه من الاعتناء بما ينفعهم وقيل الضمير لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكونه مذكراً وشرفا للعالمين لا ريب فيه ورجح بان الجملة عليه تكون صريحة فى رد دعواهم الباطلة وانت تعلم ان الاول اولى والله تعالى اعلم

تفسير سورة ﴿نٓ وَالقَلَمِ﴾

مَكِيَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: من أوّلها إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [4] مكيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[5] مدنِيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿يَكْتُبُونَ﴾[6] مكّيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[7] مدنِيّ، وما بقي مكيّ؛ قاله الماوردِيّ.

---

(١) راجع ١٠/٤٠٩. (٢) راجع ١٢/١١٢. (٣) في هـ: «ختمت السورة والحمد لله رب العالمين». (٤) آية: ١٦. (٥) آية: ٣٣. (٦) آية: ٤٧. (٧) آية: ٥٠.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾.

[٢] ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿نَ وَالْقَلمِ﴾ أدغم النون الثانية في هجائها في الواو أبو بكر والمفضّل وهُبَيرة ووَرْش وابن مُحَيْصِن وابن عامر والكسائي ويعقوب. والباقون بالإظهار. وقرأ عيسى بن عمر بفتحها؛ كأنه أضمر فعلاً. وقرأ ابن عباس ونصر وابن أبي إسحاق بكسرها على إضمار حرف القسم. وقرأ هارون ومحمد بن السَّمَيْفَع بضمها على البناء. واختلِف في تأويله؛ فَرَوى معاوية بن قُرّة عن أبيه يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «نَ لَوْح من نور». ورَوَى ثابت البُنَانيّ أن «ن» الدواة. وقاله الحسن وقتادة. وروى الوليد بن مسلم قال: حدّثنا مالك بن أنس عن سُمَيٍّ مولى أبي بكر عن أبي صالح السّمان عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما خلق الله القلم ثم خلق النُّون وهي الدواة وذلك قوله تعالى: ﴿نَ والْقَلَمِ﴾ ثم قال له أكتب قال وما أكتب قال ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ـ قال ـ ثم خُتم فَمُ القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة. ثم خلق العقل فقال الجبّار ما خَلقتُ خلقاً أعجب إليّ منك وعِزّتي وجلالي لأَكَمِّلَنّك فيمن أحببت ولأنقصنّك فيمن أبغضت» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملهم بطاعته». وعن مجاهد قال: «نَ» الحوت الذي تحت الأرض السابعة. قال: «وَالْقَلَم» الذي كُتب به الذِّكر. وكذا قال مقاتل ومُرّة الْهَمْدانيّ وعطاء الخراساني والسُّدّي والكَلْبي: إن النون هو الحوت الذي عليه الأرضون. وروى أبو ظَبيان عن ابن عباس قال: أوّل ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق النون فبسط الأرض

على ظهره ، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، وإن الجبال لتفخر على الأرض . ثم قرأ ابن عباس ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ ﴾ الآيـة . وقال الكَلْبي ومقاتل : ٱسمه البَهْمُوت[1] . قال الراجز:

مـالـي أراكـم كلّكـم سكـوتـاً والله رَبِّـي خلـق البَهْمُـوتَـا

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا. وقال كعب: لوثوثا. وقال: بلهموثا[2]. قال كعب: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون فوسوس في قلبه، وقال: أتدري ما على ظهرك يا لوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع؛ فهمّ ليوثا أن يفعل ذلك، فبعث الله إليه دابّة فدخلت مَنْخِره ووصلت إلى دماغه، فضجّ الحوت إلى الله عزّ وجلّ منها فأذن الله لها فخرجت. قال كعب: فوالله إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت كما كانت. وقال الضحاك عن ابن عباس: إن «نٓ» آخر حروف من حروف الرحمن. قال: الٓر، وحمٓ، ونٓ؛ الرحمن تعالى متقطعة. وقال ٱبن زيد: هو قسم أقسم الله تعالى به. وقال ٱبن كَيْسان: هو فاتحة السورة. وقيل: ٱسم السورة. وقال عطاء وأبو العالية: هو افتتاح ٱسمه نصير ونور وناصر. وقال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين؛ وهو حقّ. بيانه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. وقال جعفر الصادق: هو نهر من أنهار الجنة يقال له نون. وقيل: هو المعروف من حروف المعجم، لأنه لو كان غير ذلك لكان مُعْرَباً؛ وهو ٱختيار القُشَيْرِيّ أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره. قال: لأن «نٓ» حرف لم يُعْرَب، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم، فهو إذاً حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور. وعلى هذا قيل: هو اسم السور، أي هذه سورة «ن». ثم قال: «وَالْقَلَمِ» أقسم بالقلم لما فيه من البيان

---

(١) ضبطه الألوسي في تفسيره فقال: «اليهموت بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء».

(٢) اضطربت الأصول والمراجع التي بين أيدينا في هذه الأسماء. وقد خرج المؤلف رحمه الله عما اشترطه في مقدمة كتابه (ص ٣) حيث قال: «... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين..» الخ.

(٣) راجع ١٤/ ٤٣.

كاللسان؛ وهو واقع على كل قلم مما يَكتب به من في السماء ومَن في الأرض؛ ومنه قول أبي الفتح البُسْتِيّ:

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعَدُّوه مما يكسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كَفَى قلم الكُتَّابِ عزًّا ورفعةً مَدَى الدهرِ أن الله أقسم بالقلمْ

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة؛ ما ذكرناه أعلاها. وقال ابن عباس: هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله؛ فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وهو قلم من نورٍ طوله كما بين السماء والأرض. ويقال. خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين؛ فقال: اجرِ؛ فقال: يا ربّ بِمَ أجري؟ قال بما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فجرى على اللوح المحفوظ. وقال الوليد بن عُبادة بن الصامت: أوصاني أبي عند موته فقال: يا بُنَيّ، اتقِ الله، واعلم أنك لن تتقي ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده، والقدر خيره وشرّه، سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أوّل ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال يا رب وما أكتب فقال اكتب القدر فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد» وقال ابن عباس: أوّل ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن؛ فكتب فيما كتب «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ». وقال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى على عباده. قال غيره: فخلق الله القلم الأوّل فكتب ما يكون في الذكر ووضعه عنده فوق عرشه، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض؛ على ما يأتي بيانه في سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما يكتبون. يريد الملائكة يكتبون أعمال بني آدم؛ قاله ابن عباس: وقيل: وما يكتبون [أي] الناس ويتفاهمون به. وقال ابن عباس: ومعنى «وَمَا يَسْطُرونَ» وما يعلمون. و «ما» موصولة أو مصدرية؛ أي ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد به كل من يسطر أو الحفظة؛ على الخلاف. ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جواب القسم وهو نفي؛ وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون، به شيطان.

(١) راجع ٢٠/١١٧.

وهو قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[١] فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم وتكذيباً لقولهم ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي برحمة ربك. والنعمة ها هنا الرحمة. ويحتمل ثانياً ـ أن النعمة ها هنا قَسَم؛ وتقديره: ما أنت ونعمةِ ربك بمجنون؛ لأن الواو والباء من حروف القسم. وقيل هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون، والنعمة لربك؛ كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي والحمد لله. ومنه قول لَبِيد:

وأفردْتُ في الدنيا بفقد عشيرتي ... وفارقني جارٌ بأَرْبَدَ نافِعُ

أي و هو أربد[٢]. وقال النابغة:

لم يُحْرَمُوا حُسْنَ الغِذاء وأُمُّهم ... طَفَحتْ عليك بناتق مِذْكارِ

أي هو ناتق. والباء في «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» متعلقة «بمجنون» منفيًّا؛ كما يتعلق بغافل مثبتاً. كما في قولك: أنت بنعمة ربك غافل. ومحله النصب على الحال؛ كأنه قال: ما أنت بمجنون مُنْعَماً عليك بذلك. ﴿وإِنَّ لَكَ لأَجْراً﴾ أي ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوّة. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص؛ يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وحبل منين إذا كان غير متين. قال الشاعر:

غُبْساً كواسِبَ لا يُمَنّ طعامُها[٣]

أي لا يقطع. وقال مجاهد: «غَيْرَ مَمْنُونٍ» محسوب. الحسن: «غَيْرَ مَمْنُونٍ» غير مكدّر بالمَنّ. الضحاك: أجراً بغير عمل. وقيل: غير مقدر وهو التفضل؛ لأن الجزاء مقدّر والتفضل غير مقدر؛ ذكره الماوَرْدِيّ، وهو معنى قول مجاهد.

---

(١) راجع ١٠/٤.

(٢) الربدة (بضم فسكون): الغبرة. ورواية الديوان في هذا البيت:

وقد كنت في أكناف جار مضنة ... ففارقني .... الخ

و «جار مضنة»: جار يضن به.

(٣) هذا عجز بيت للبيد. واختلف في صدره. راجع مادة (منن) في «اللسان»، والغبسة: لون الرماد.

[٤] ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد: على خُلُقٍ، على دينٍ عظيم من الأديان، ليس دين أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن خُلُقه كان القرآن. وقال عليّ رضي الله عنه وعَطِيّة: هو أدب القرآن. وقيل: هو رِفقُه بأمّته وإكرامُه إيّاهم. وقال قتادة؛ هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه. وقيل: أي إنك على طبع كريم. الماورديّ: وهو الظاهر. وحقيقة الخُلُق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسانُ نفسَه من الأدب يُسَمَّى خُلُقاً؛ لأنه يصير كالخِلْقة فيه. وأما ما طُبع عليه من الأدب فهو الخِيم (بالكسر): السَّجِيَّة والطبيعة، لا واحد له من لفظه. وخِيم: اسم جبل. فيكون الخُلُق الطبعَ المتكلَّف. والخِيم الطبع الغريزي. وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذُو الفضول ضَنَّ على المَوْ لَى وعـادت لِخيمهـا الأخـلاقُ

أي رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

قلت: ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصحّ الأقوال. وسئلت أيضاً عن خُلُقه عليه السلام؛ فقرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١] إلى عشر آيات، وقالت: ما كان أحد أحسن خُلُقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لَبَّيْك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ولم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظّ الأوفر. وقال الجُنَيْد: سُمِّيَ خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى. وقيل سُمِّيَ خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدلّ عليه قوله عليه السلام: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق». وقيل: لأنه ٱمتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢]. وقد روي عنه عليه السلام

(١) راجع ١٢/١٠٣.
(٢) راجع ٧/٤٤٣.

أنه قال: «أَدَّبَنِي رَبِّي تأديباً حسناً إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾».

الثانية ـ روى الترمذِيّ عن أبي ذَرٌ قال: قال رسول الله ﷺ: أتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها وخالق الناس بِخُلُق حَسَن». قال حديث حسن صحيح. وعن أبي الدَّرْدَاء أن النبي ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَن وإن الله تعالى لَيُبْغِض الفاحش البذيء». قال: حديث حسن صحيح. وعنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْنِ الخُلُق وإن صاحب حُسنِ الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم». قال: حديث غريب من هذا الوجه. وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخُلُق». وسئل عن أكثر ما يُدْخِل الناس النار؟ فقال: «الفَم والفَرْج» قال: هذا حديث صحيح غريب. وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حُسْن الخُلُق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكَفّ الأذى. وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ مِن أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً ـ قال ـ وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدَكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والْمُتَفَيْهِقُون». قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنا الثرثارون[1] والمتشدّقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المكتبرون». قال: وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن غريب [من هذا الوجه][2].

[٥] ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾.

[٦] ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

[٧] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

---

(١) المتشدق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

(٢) زيادة عن صحيح الترمذي.

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقيل: فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحقّ والباطل. ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ الباء زائدة؛ أي فستبصر ويبصرون أيكم المفتون. أي الذي فُتِن بالجنون؛ كقوله تعالى: ﴿تُنبِتُ بِالدُّهْنِ﴾[1] و ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[2]. وهذا قول قتادة وأبي عُبيد والأخفش. وقال الراجز:

نحن بنو جَعْدَة أصحاب الفَلَج نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج[3]

وقيل: الباء ليست بزائدة؛ والمعنى: «بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ» أي الفتنة. وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه الفُتُون؛ كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول؛ أي عقل ولا جلادة. وقاله الحسن والضحاك وابن عباس. وقال الراعي:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولا

أي عقلاً. وقيل في الكلام تقدير حذف مضاف؛ والمعنى: بأيكم فتنة المفتون. وقال الفرّاء: الباء بمعنى في؛ أي فستبصِر ويبصرون في أي الفريقين المجنون؛ أبالْفِرْقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالْفِرقة الأخرى. والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان. وقيل: المفتون المعذَّب. من قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا حَمّيته. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[4]. أي يعذّبون.

ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل. وقيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون في دينه. وكانوا يقولون: إن به شيطاناً، وَعَنْوا بالمجنون هذا؛ فقال الله تعالى: ﴿فسيعلمون غداً بأيهم المجنون﴾؛ أي الشيطان الذي يحصل من مَسّه الجنون واختلاط العقل.

---

(١) راجع ١٢/ ١١٤.

(٢) راجع ١٩/ ١٢٤.

(٣) الفلج (بفتح الفاء واللام): مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة. ويجوز فيه: نحن بني... بالنصب على الاختصاص. (راجع الشاهد التاسع والثمانين بعد السبعمائة في خزانة الأدب).

(٤) راجع ١٧/ ٣١.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي الذين هم على الهدى فيجازي كُلاًّ غداً بعمله.

[٨] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾.

نهاه عن ممايلة[١] المشركين؛ وكانوا يدعونه إلى أن يكُفّ عنهم ليكفُّوا عنه، فبيّن الله تعالى أن ممايلتهم كفر. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[٢]. وقيل: أي فلا تطع المكذبين فيما دَعوك إليه من دينهم الخبيث. نزلت في مشركي قريش حين دَعَوْه إلى دين آبائه.

[٩] ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

قال ٱبن عباس وعطية والضحاك والسُّدّيّ: ودّوا لو تكفر فيتمَادَوْن على كفرهم. وعن ٱبن عباس أيضاً: ودّوا لو تُرَخِّص لهم فيُرَخِّصون لك. وقال الفرّاء والكَلْبيّ: لو تلين فيلينون لك. والادّهان: التَّليين لمن لا ينبغي له التَّليين؛ قاله الفرّاء. وقال مجاهد: المعنى ودّوا لو رَكَنْتَ إليهم وتركت الحقّ فيُمالئونك. وقال الرّبيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. الحسن: ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضاً؛ ودّوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم. زيد بن أسلم: لو تنافق وترائي فينافقون ويراءون. وقيل: ودّوا لو تضعف فيضعفون؛ قاله أبو جعفر. وقيل، ودّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم؛ قاله القُتَبِيّ. وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدّة ويعبدوا إلهه مدّة. فهذه ٱثنا عشر قولاً. ابن العربيّ: ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلّها دعاوَى على اللغة والمعنى. أمثلها قولهم: ودّوا لو تكذب فيكذبون، ودّوا لو تكفر فيكفرون.

---

(١) مايله ممايلة: مالأه.
(٢) راجع ١٠/ ٣٠٠.

قلت: كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإن الادّهان: اللينُ والمصانعة. وقيل: مجاملة العدُوّ ممايلته. وقيل: المقاربة في الكلام والتَّليين في القول. قال الشاعر:

لبعض الغَشْم أحزم في أمور تنــوبــك مــن مــداهنــة العِــدة

وقال المفضل: النفاق وترك المناصحة. فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأوّل غير مذمومة، وكل شيء منها لم يكن. قال المبرد: يقال أدهن في دينه وداهن في أمره؛ أي خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت؛ قاله الجوهريّ. وقال: «فَيُدْهِنُونَ» فساقه على العطف، ولو جاء به جواب النهي لقال فيدهنوا. وإنما أراد: إن تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك؛ عطفاً لا جزاءً عليه ولا مكافأة، وإنما هو تمثيل وتنظير.

[١٠] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾.

يعني الأخنس بن شَرِيق؛ في قول الشعبيّ والسُّديّ وابن إسحاق. وقيل: الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود؛ قاله مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة، عرض على النبي ﷺ مالاً وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه؛ قاله مقاتل. وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام. والحلّاف: الكثير الحَلِف. والمَهين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد. ابن عباس: الكذاب. والكذاب مهين. وقيل: المكثار في الشَّر؛ قاله الحسن وقتادة. وقال الكلبيّ: المَهين الفاجر العاجز. وقيل: معناه الحقير عند الله. وقال ابن شجرة: إنه الذليل. الرُّمّاني: المهين الوضيع لإكثاره من القبيح. وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة. وهي هنا القلة في الرأي والتمييز. أو هو فعيل بمعنى مُفْعَل؛ والمعنى مُهان. ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن زيد: الهمّاز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم. واللماز باللسان. وقال

الحسن: هو الذي يهمز ناحية في المجلس؛ كقوله تعالى: «هُمَزَة». وقيل: الهَمّاز الذي يذكر الناس في وجوههم. واللمّاز الذي يذكرهم في مغيبهم؛ قاله أبو العالية وعطاء بن أبي رباح والحسن أيضاً. وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام: إن الهُمَزَة الذي يغتاب بالغيبة. واللُّمَزَة الذي يغتاب في الوجه. وقال مرّة: هما سواء. وهو القَتّات الطّعّان للمرء إذا غاب. ونحوه عن ابن عباس وقتادة. قال الشاعر:

تُدْلِي بودّ إذا لاقيتني كذباً ... وإنْ أغِبْ فأنت الهامز اللُّمَزَة

﴿مَشَّاءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. يقال: نَمّ يَنِمّ نَمًّا ونَمِيماً ونَمِيمَةً؛ أي يمشي ويسعى بالفساد. وفي صحيح مسلم عن حُذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينمّ الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمّام». وقال الشاعر:

ومولًى كبيت النمل لا خير عنده ... لمولاه إلا سَعْيُه بنميم

قال الفرّاء: هما لغتان. وقيل: النَّميم جمع نَميمة. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي للمال أن ينفق في وجوهه. وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته. وقال الحسن: يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً. ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي على الناس في الظلم، متجاوز للحدّ، صاحب باطل. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي ذي إثم، ومعناه أثُوم[1]، فهو فَعيل بمعنى فعول، ﴿عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ العُتُلّ الجافي الشديد في كفره. وقال الكلبيّ والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل. وقيل: إنه الذي يعتِل الناس فيجرّهم إلى حبس أو عذاب. مأخوذ من العَتْل وهو الجرّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾[2]. وفي الصّحاح: وعتلت الرجل أعتِله وأعْتُله إذا جذبته جذباً عنيفاً. ورجل مِعْتَل (بالكسر). وقال يصف[3] فرساً:

نَفْرعه فرعاً ولسنا نَعْتِله

قال ابن السكيت: عَتَله وعَتَنه، باللام والنون جميعاً. والعُتُلّ الغليظ الجافي. والعُتُلّ أيضاً:

(١) في الأصول: «مأثوم».
(٢) راجع ١٦/١٥.
(٣) هو أبو النجم الراجز. وفرع فرسه فرعاً: كبحه وكفه.

الرمح الغليظ. ورجل عَتِلٌ (بالكسر) بيِّن العَتَل؛ أي سريع إلى الشر. ويقال: لا أنعتل معك؛ أي لا أبرح مكاني. وقال عُبيد بن عمير: العُتُلّ الأكول الشروب القويّ الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة؛ يدفع المَلَك من أولئك في جهنم بالدُّفعة الواحدة سبعين ألفاً. وقال عليّ بن أبي طالب والحسن: العُتُلّ الفاحش السيء الخلق. وقال مَعْمَر: هو الفاحش اللئيم. قال الشاعر:

بِعُتُلٍّ من الرجال زَنِيم غير ذي نجدة وغير كريم

وفي صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبي ﷺ قال: «ألاَ أخبركم بأهل الجنة ـ قالوا بلى قال ـ كلُّ ضعيف مُتَضَعَّف[1] لو أقسم على الله لأبرّه. ألا أخبركم بأهل النار ـ قالوا بلى قال ـ كلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُسْتَكْبِر». في رواية عنه «كلُّ جوّاظ زَنيم متكبّر». الجَوّاظ: قيل هو الجَمُوع المنوع. وقيل الكثير اللحم المختال [في مشيته]. وذكر الماوردي عن شَهْر بن حَوْشَب عن عبد الرحمن بن غنم، ورواه ٱبن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جَوّاظ ولا جَعْظرِيّ ولا الْعُتُلّ الزَّنِيم». فقال رجل: ما الجوّاظ وما الجَعْظَرِيّ وما العُتُلّ الزَّنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجوّاظ الذي جَمَعَ ومَنَع. والجَعْظَرِيّ الغليظ. والعُتُل الزَّنيم الشديد الخَلْق الرّحيب الجوف المصَحَّح الأكول الشروب الواجد للطعام الظلوم للناس». وذكره الثعلبي عن شدّاد بن أوس: «لا يدخل الجنة جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ ولا عُتُل زنيم» سمعتهن من النبي ﷺ قلت: وما الجوّاظ؟ قال: الجَمَّاع المنّاع. قلت: وما الجَعْظَرِيّ؟ قال: الفَظّ الغليظ. قلت: وما العُتُلّ الزنيم؟ قال: الرَّحِيب الجوَف الوَثِير الخَلَق الأكول الشروب الغشوم الظلوم.

قلت: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العُتُل قد أربى على أقوال المفسرين. ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجَوّاظ أنه الفظّ الغليظ. ذكره من حديث حارثة بن وهب

---

(١) روى بكسر العين وفتحها. والمشهور الفتح. ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا. ورواية الكسر معناها: متواضع متذلل خامل واضع من نفسه. قال القاضي: وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان.

الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجَوّاظ ولا الجَعْظَرِيّ» قال: والجوّاظ الفظّ الغليظ. ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أوّلاً. وقد قيل: إنه الجافي القلب. وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿عُتُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: قال النبي ﷺ: «تبكي السماء من رجل أصحّ الله جِسْمَه ورحّب جَوْفَه وأعطاه من الدنيا بعضاً فكان للناس ظلوماً فذلك الْعُتُلّ الزنيم. وتبكي السماء من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تُقِلّه». والزّنِيم المُلْصَق بالقوم الدَّعيّ؛ عن ابن عباس وغيره. قال الشاعر:

زَنيـمٌ تـداعـاه الـرجـال زيـادةً كما زيد في عَرْضِ الأدِيم الأكارعُ

وعن ابن عباس أيضاً: أنه رجل من قريش كانت له زَنَمة كزنمة الشاة. وروى عنه ابن جُبَير: أنه الذي يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزنمتها. وقال عِكرِمة: هو اللئيم الذي يُعرف بلؤمه كما تُعرف الشاة بزنمتها. وقيل: إنه الذي يعرف بالأُبْنَةِ. وهو مروي عن ابن عباس أيضاً. وعنه أنه الظلوم. فهذه ستة أقوال. وقال مجاهد: زَنِيم كانت له ستة أصابع في يده، في كل إبهام له إصبع زائدة. وعنه أيضاً وسعيد بن المسيّب وعكرمة: هو ولد الزّنى الملحق في النسب بالقوم. وكان الوَلِيد[1] دَعِيًّا في قريش ليس من سِنْخهم[2]؛ ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. قال الشاعر:

زنِيـمٌ ليـس يُعـرف مَـن أبـوه بغـيّ الأُمّ ذو حسـب لئيـم

وقال حَسَّان:

وأنت زَنِيم نِيط في آل هاشمٍ كما نِيط خَلْفَ الراكب القَدَحُ الفَرْدُ

قلت : وهذا هو القول الأول بعينه . وعن علـيّ رضي الله تعالـى عنـه أنه الذي لا أصل له؛ والمعنى واحد. ورِوي أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة وَلَدُ زنًى ولا ولده ولا ولد ولده » . وقال عبد الله بن عمر : إن النبي ﷺ قال : « إن أولاد الزنى يحشرون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير » . وقالت ميمونة : سمعت النبي ﷺ

(١) هو الوليد بن المغيرة المخزومي.
(٢) السنخ (بالكسر والخاء المعجمة): الأصل.

ﷺ يقول: «لا تزال أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولدُ الزِّنَى فإذا فَشَا فيهم ولد الزنى أوشكَ أن يعمهم الله بعقاب». وقال عكرمة: إذا كثر ولد الزنى قحط المَطَرُ.

قلت: أما الحديث الأول والثاني فما أظن لهما سنداً يصح، وأما حديث ميمونة وما قاله عكرمة ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جَحْش زوج النبي ﷺ قالت: خرج النبي ﷺ يوماً فزِعاً مُحْمَراً وَجْهُهُ يقول: «لا إله إلا الله. ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب. فُتح اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه» وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت فقلتُ: يا رسول الله، أنَهلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثُر الخَبَث» خرّجه البخارِيّ. وكثرة الخبث ظهور الزنى وأولاد الزنى؛ كذا فسّره العلماء. وقول عكرمة «قحط المطر» تبيينٌ لما يكون به الهلاك. وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله. ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يُطعم أهلَ مِنًى حَيْساً[1] ثلاثة أيام، وينادي ألاَ لا يوقدنّ أحد تحت بُرْمَةٍ، ألا لا يدخننّ أحد بكُراع، ألا ومن أراد الحَيْس فليأت الوليد بن المغيرة. وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً فقيل: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾. وفيه نزل: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِين لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[2]. وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأَخنَس بن شَرِيق، لأنه حليف مُلْحق في بني زُهْرة، فلذلك سُمِّيَ زَنِيماً، وقال ابن عباس: في هذه الآية نُعِت، فلم يعرف حتى قُتل فعُرف، وكان له زَنَمة في عنقه معلّقة يُعرف بها. وقال مُرّة الهَمْداني: إنما ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة.

[١٤] ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾.

(١) الحيس: الطعام المتخذ من التمر والأقط (الجبن المتخذ من اللبن الحامض) والسمن.
(٢) راجع ١٥/ ٣٤٠.

قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو حَيْوة والمغيرة والأعرج «آن كان» بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ المُفَضّل وأبو بكر وحمزة «أأن كان» بهمزتين مُحَقّقتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ، ويحسن له أن يقف على «زنيم»، ويبتدىء «أَنْ كَانَ» على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه. ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يقول إِذَا تُتْلَى عليهِ آيَاتُنَا: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ!! ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر. ودلّ عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام. ومن قرأ «أَنْ كَانَ» بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر، والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين. ودل على هذا الفعل: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. ولا يعمل في «أَنْ»: «تُتْلَى» ولا «قَالَ» لأن ما بعد «إِذَا» لا يعمل فيما قبلها؛ لأن «إِذَا» تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف. و «قَالَ» جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء؛ إذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه، وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدماً مؤخراً في حال، ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد. قال ابن الأنباري: ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على «زَنِيم» لأن المعنى لأن كان وبأن كان، فـ «ـأن» متعلقة بما قبلها. قال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله: «مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» والتقدير يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين. وأجاز أبو عليّ أن يتعلق بـ «ـعُتُلٍّ». وأساطير الأولين: أباطيلهم وتُرّهاتهم وخرافاتهم[1]. وقد تقدم[2].

[١٦] ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ﴾ قال ابن عباس: معنى «سَنَسِمُهُ» سَنَخْطِمه بالسيف. قال: وقد خُطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف؛ فلم يزل مخطوماً إلى أن مات.

---

(١) في الأصول: «وخراريقهم» بالقاف. (٢) راجع ٦/ ٤٠٥.

وقال قتادة: سنسمه يوم القيامة على أنفه سِمَةً يعرف بها؛ يقال: وسَمْته وسْماً وسِمَةً إذا أثّرت فيه بِسِمَةٍ وَكَيّ. وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[١] فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾[٢] وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية علامة ثالثةً وهي الوسم على الأنف بالنار؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[٣] قاله الكلبي وغيره. وقال أبو العالية ومجاهد: «سِنِسمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» أي على أنفه، ونسوّد وجهه في الآخرة فَيُعْرف بسواد وجهه. والخرطوم: الأنف من الإنسان. ومن السباع: موضع الشَّفَة. وخراطيم القوم: ساداتهم. قال الفراء: وإن كان الخُرْطُوم قد خُصّ بالسِّمة فإنه في معنى الوجه؛ لأن بعض الشيء يعبّر به عن الكل. وقال الطبريّ: نبيّن أمره تبياناً واضحاً حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخراطيم. وقيل: المعنى سَنُلْحِقُ به عاراً وسُبَّةً حتى يكون كمن وُسِم على أنفه. قال القُتَبيّ: تقول العرب للرجل يُسَبّ سُبّةَ سوء قبيحة باقية: قد وُسِم مِيسَم سوء؛ أي أُلْصِق به عارٌ لا يفارقه؛ كما أن السِّمة لا يُمْحَى أثرها» قال جرير:

لمّا وضعتُ على الفَرَزْدَق مِيسَمِي وعلى البَعِيث[٤] جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ

أراد به الهجاء. قال: وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة. ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فألحقه به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة؛ كالوَسْم على الخرطوم. وقيل: هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذُلّ وصَغار؛ قاله ابن بحر. واستشهد بقول الأعشى:

فدعها وما يغنيك واعمِدْ لغيرها بشعرك واعْلُب[٥] أنف من أنت واسم

---

(١) راجع ٤/١٦٦.
(٢) راجع ١١/٢٤٤.
(٣) راجع ١٧/١٧٥.
(٤) البعيث: هو خداش بن بشر (ويقال بشير) من بني مجاشع؛ كان يهاجي جريراً.
(٥) علبه يعلبه علباً وعلوباً: أثر فيه ووسمه أو خدشه.

وقال النَّضر بن شُمَيل: المعنى سنحُدّه على شرب الخمر، والخرطوم: الخمر، وجمعه خراطيم، قال الشاعر:

تَظَلُّ يومك في لَهْوٍ وفي طَرَب وأنت بالليل شَرّاب الخراطيم

قال الراجز[1]:

صَهْبَاء خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفَا[2]

وقال آخر:

أبا حاضر من يَزْنُ يُعرف زناؤه ومن يشرب الخُرْطوم يُصبح مسكرا

الثانية ـ قال ابن العربي: «كان الوسم في الوجه لذي المعصية قديماً عند الناس، حتى أنه روي ـ كما تقدم ـ أن اليهود لما أهملوا رَجْم الزاني اعتاضوا منه بالضرب وتحميم[3] الوجه؛ وهذا وضع باطل. ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور، علامةً على قُبْح المعصية وتشديداً لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته[4]؛ فقد كان عزيزاً بقول الحق وقد صار مَهيناً بالمعصية. وأعظم الإهانة [إهانةُ الوجه]. وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سبباً لخيرة[5] الأبد والتحريم له على النار؛ فإن الله تعالى قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثَرَ السجود؛ حسب ما ثبت في الصحيح.

[١٧] ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(١) هو العجاج. (٢) كل هذا من أسماء الخمر. وقبله:

فغمها حولين ثم استودفا

وغممت الشيء: غطيته. واستودف اللبن: صبه في الإناء.

(٣) تحميم الوجه: تسخيمه بالفحم. (٤) عبارة ابن العربي في أحكامه: «... لغيره لمن يرجى تجنبه بمن يرى من عقوبة...». (٥) في ابن العربي: «سبباً لحياة الأبد».

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يريد أهل مكة. والابتلاء الاختبار. والمعنى أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا ليَبْطَروا؛ فلما بَطِرُوا وعادَوْا محمداً ﷺ ابتليناهم بالجوع والقَحْط كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم. وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء ـ ويقال بفرسخين ـ وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها؛ فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرها وبَخِلُوا بحقّ الله فيها؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان؛ ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم. وقيل: هي جنة بضَوّران، وضوران على فرسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير ـ وكانوا بخلاء ـ فكانوا يَجُدّون التمر ليلاً من أجل المساكين، وكانوا أرادوا حصاد زرعها وقالوا: لا يدخلها اليوم عليكم مسكين، فغَدَوْا عليها فإذا هي قد اَقْتُلِعَت من أصلها فأصبحت كالصَّرِيم؛ أي كالليل. ويقال أيضاً للنهار صرِيم. فإن كان أراد الليل فلاسوداد موضعها. وكأنهم وجدوا مَوْضِعَها حَمْأة. وإن كان أراد بالصَّريم النهار فلذهاب الشجر والزرع ونقاء الأرض منه. وكان الطّائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتلعها. فيقال: إنه طاف بها حَوْل البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم؛ ولذلك سُمِّيت الطائف. وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب والماء غيرها. وقال البكري في المُعْجَم: سُمِّيت الطائف لأن رجلاً من الصَّدِف[١] يقال له الدَّمُون، بنى حائطاً وقال: قد بَنَيْتُ لكم طائفاً حول بلدكم؛ فسُمِّيت الطائف. والله أعلم.

الثانية ـ قال بعض العلماء: على من حصد زَرْعاً أو جَدّ ثمرة أن يواسي منها من حضره؛ وذلك معنى قوله: ﴿وَآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وأنه غير[٢] الزكاة على ما تقدّم في «الأنعام» بيانه[٣]. وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصّادون. وكان بعض العباد يتحرّون أقواتهم

(١) الصدف (بالفتح ثم الكسر): مخلاف من اليمن منسوب إلى القبيلة.

(٢) في ط: «عين». (٣) راجع ٧/ ٩٩.

من هذا. وروي أنه نُهي عن الحصاد بالليل. فقيل: إنه لِما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق. وتأوّل من قال هذا الآية التي في سورة ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾. وقيل: إنما نهى عن ذلك خشية الحيّات وهوامّ الأرض.

قلت: الأوّل أصح؛ والثاني حسن. وإنما قلنا الأول أصح لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى. روى أسباط عن السُّدِّي قال: كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلاً صالحاً، وكان إذا بلغ ثمارُه أتاه المساكين فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها ويتزوّدوا؛ فلما مات قال بَنُوه بعضهم لبعض: عَلَامَ نُعطي أموالنا هؤلاء المساكين! تعالَوْا فلْنُدْلج فنصْرمنّها قبل أن يعلم المساكين؛ ولم يستثنوا؛ فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خَفْتاً[1]: لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني حلفوا فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني لنجذّنها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين؛ ولا يستثنون؛ يعني لم يقولوا إن شاء الله. وقال ابن عباس؛ كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تعدّاه المِنْجَل فلم يجذّه من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعدّاه المِنْجَل فهو للمساكين، فإذا دَرَسُوا كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأراملُ والمساكين، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم. فقالوا: قلّ المالُ وكثر العيال؛ فتحالفوا بينهم ليغدُون غدوة قبل خروج الناس ثم ليَصْرِمنها ولا تعرف المساكين. وهو قوله: «إِذْ أَقْسَمُوا» أي حلفوا «لَيَصْرِمُنَّها» ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسُدْفة[2] من الليل لئلا ينتبه المساكين لهم. والصرم القطع. يقال: صرم العِذق عن النخلة. وأصرم النخلُ أي حان وقت صِرامه. مثل أرْكَبَ المهرُ وأحصدَ الزرعُ، أي حان ركوبه وحَصاده. ﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ينادي بعضهم بعضاً.

---

(١) الخفت (بوزن السبت): إسرار المنطق.

(٢) السدفة: الظلمة، والضوء. وطائفة من الليل. وقيل: اختلاط الضوء والظلمة جميعاً.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ عازمين على الصّرام والجداد. قال قتادة: حاصدين زرعكم. وقال الكلبي: ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل. وقال مجاهد: كان حرثهم عِنَباً ولم يقولوا إن شاء الله. وقال أبو صالح: كان استثناؤهم قولهم سبحان الله رَبّنا. وقيل: معنى «وَلاَ يَسْتَثْنُونَ» أي لا يستثنون حق المساكين؛ قاله عكرمة. فجاءوها ليلاً فرأوا الجنة مسوّدة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. قيل: الطائف جبريل عليه السلام؛ على ما تقدّم ذكره. وقال ابن عباس: أمْرٌ من ربك. وقال قتادة: عذاب من ربّك. ابن جريج: عُنُق من نار خرج من وادي جهنم. والطائف لا يكون إلا بالليل؛ قاله الفرّاء.

الثالثة ـ قلت: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وقد مضى مبيّناً في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾[(٢)].

[٢٠] ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾.

[٢١] ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝٢١﴾.

[٢٢] ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالليل المظلم؛ عن ابن عباس والفرّاء وغيرهما. قال الشاعر:

تطاول لَيْلُك الجَوْنُ البَهِيمُ   فما ينجاب عن صبح بَهِيم[(٣)]

---

(١) راجع ١٢/ ٣٤.

(٢) راجع ٤/ ٢١٥.

(٣) في «اللسان» مادة صرم:

فما ينجاب عن ليل صريم

أي احترقت فصارت كالليل الأسود. وعن ابن عباس أيضاً: كالرَّماد الأسود. قال: الصريم الرماد الأسود بلغة خُزَيمة. الثورِيّ: كالزرع المحصود. فالصريم بمعنى المصروم أي المقطوع ما فيه. وقال الحسن: صُرِم عنها الخير أي قطع؛ فالصريم مفعول أيضاً. وقال المؤرّج: أي كالرملة انصرمت من معظم الرمل. يقال: صريمة وصرائم: فالرّملة لا تنبت شيئاً يُنتفع به. وقال الأخفش: أي كالصبح انصرم من الليل. وقال المبرد: أي كالنهار: فلا شيء فيها. قال شَمِر: الصَّريم الليل والصَّريم النهار: أي ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا. وقيل: سُميَ الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف؛ ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل. قال القُشَيْرِي: وفي هذا نظر؛ لأن النهار يسمَّى صرِيماً ولا يقطع عن تصرّف.

[٢٣] ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتسارّون؛ أي يخُفون كلامهم ويسرونه لئلا يَعلم بهم أحد؛ قاله عطاء وقتادة. وهو من خَفَت يَخْفِتُ إذا سكن ولم يبيّن. كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

وإنّيَ لم أهلك سُلالاً ولم أمت   خُفَـاتـا وكُـلاًّ ظَنَّـه بِـيَ عُـوَّدِي

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم. وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصِرَّام. ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي على قَصْد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم. قال معناه ابن عباس وغيره. والحَرْد القصدُ. حَرَد يَحْرِد (بالكسر) حَرْداً قصد. تقول: حَرَدْتُ حَرْدَك؛ أي قصدت قصدك. ومنه قول الراجز:

أقبـل سَيْـلٌ جـاء مـن عنـد الله   يَحْـرِدُ حَـرْدَ الجنـة المُغِلَّـهْ

أنشده النحاس:

قد جاء سيل جاء من أمر الله   يحـرد حـرد الجنـة المغلـه

قال المبرد: المُغِلّة ذات الغَلّة. وقال غيره: المغِلّة التي يجري الماء في غللها[1] أي في أصولها. ومنه تغلّلت بالغالية. ومنه تغلّيت، أبدل من اللام ياء. ومن قال تَغَلّفت فمعناه عنده جعلتها غِلافاً. وقال قتادة ومجاهد: «عَلَى حرْدٍ» أي على جِدّ. الحسن: على حاجة وفاقة. وقال أبو عبيدة والقُتَيبِيّ: على حَرْد على منع؛ من قولهم حَارَدَتِ الإبلُ حِراداً أي قلّت ألبانها. والحَرُود من النُّوق القليلة الدَّرّ. وحاردَتِ السَّنَةُ قلّ مطرها وخيرها. وقال السدّي وسفيان: «عَلَى حَرْدٍ» على غضب. والحرد الغضب. قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: وهو مخفف: وأنشد شعراً:

إذا جياد الخيلِ جاءت تَرْدِي ... مملوءةً من غَضَبٍ وحَرَدِ

وقال ابن السِّكّيت: وقد يحرّك؛ تقول منه: حَرِد (بالكسر) حَرَداً، فهو حارد وحَرْدان. ومنه قيل: أسَدٌ حارِدٌ، ولُيُوثٌ حوارد. وقيل: «عَلَى حَرْدٍ» على انفراد. يقال: حَرَد يَحْرِد حُرُوداً؛ أي تنَحّى عن قومه ونزل منفرداً ولم يخالطهم. وقال أبو زيد: رجل حرِيد من قوم حرداء. وقد حَرَد يَحْرِد حُروداً؛ إذا ترك قومه وتحوّل عنهم. وكوكب حَرِيد؛ أي معتزل عن الكواكب. قال الأصمعيّ: رجل حَرِيد؛ أي فريد وحيد. قال: والمُنْحرِد المنفرد في لغة هُذَيل. وأنشد لأبي ذؤيب:

كأنه كوكب في الجَوّ مُنْحَرِد

ورواه أبو عمرو بالجيم، وفسّره: منفرد. قال: وهو سهيل. وقال الأزهريّ: حَرْد أسم قريتهم. السُّديّ: اسم جنتهم؛ وفيه لغتان: حَرْدٌ وحَرَد. وقرأ العامة بالإسكان. وقرأ أبو العالية وأبن السَّمَيْقَع بالفتح؛ وهما لغتان. ومعنى «قَادِرِين» قد قدّروا أمرهم وبَنَوْا عليه؛ قاله الفرّاء. وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. وقال الشعبيّ: «قَادِرِينَ» يعني على المساكين. وقيل: معناه من الوجود؛ أي منعوا وهم واجدون.

---

(١) الذي في كتب اللغة: الغلل: الماء الذي يجري في أصول الشجر، أو الماء الظاهر الجاري.

[٢٦] ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي لما رأوها محترقة لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد، أنكروها وشكُّوا فيها. وقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي ضللنا الطريق إلى جنَّتِنا؛ قاله قتادة. وقيل: أي إنا لضالون عن الصواب في غدوّنا على نية منع المساكين؛ فلذلك عوقبنا. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي حُرِمنا جنتنا بما صنعنا. روى أسباط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي إن العبد ليُذنِبُ الذَّنْبَ فيُحْرَم به رزقاً كان هُيِّىءَ له ـ ثم تلا ـ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآيتين.

[٢٨] ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم. ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾ أي هلاّ تستثنون. وكان استثناؤهم تسبيحاً؛ قاله مجاهد وغيره. وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه. قال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله. فقال لهم: هَلاّ تسبحون الله؛ أي تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم. قال النّحاس: أصل التسبيح التنزيهُ لله عزّ وجلّ؛ فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله؛ لأن المعنى تنزيه الله عزّ وجلّ أن يكون شيء إلا بمشيئته. وقيل: هلاّ تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خُبْث نيّتكم؛ فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكّرهم انتقامه من المجرمين ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ اعترفوا بالمعصية ونزّهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل. قال ابن عباس في قولهم: «سُبْحَانَ رَبِّنَا» أي نستغفر الله من ذنبنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا

في منعنا المساكين. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي يلوم هذا هذا في القسم ومنع المساكين، ويقول: بل أنت أشرت علينا بهذا. ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء. وقال ابن كَيْسَان: طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل. ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا﴾ تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعنّ كما صنعت آباؤنا؛ فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها، وأمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزُغر[1] من أرض الشام، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها. وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً. وقال اليمانيّ أبو خالد: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم. وقال الحسن: قول أهل الجنة ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ لا أدري إيماناً كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف في كونهم مؤمنين. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعباً. والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا؛ حكاه القشيريّ. وقراءة العامة «يُبْدِلَنَا» بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد، وهما لغتان. وقيل: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم. والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه. وقد مضى في سورة «النساء» القول في هذا[2].

[٣٣] ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي عذاب الدنيا وهلاك الأموال؛ عن ابن زيد. وقيل: إن هذا وَعْظٌ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجَدْب لدعاء النبي ﷺ، أي كفِعْلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ

---

(١) زغر: بضم الزاي وفتح الغين المعجمة وآخرها راء.

(٢) راجع ٥/٢٤٥.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن عباس: هذا مَثَلٌ لأهل مكة حين خرجوا إلى بَدْرٍ وحلفوا ليقتلن محمداً ﷺ وأصحابه. وليرجعنّ[1] إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضرب القَيْنات على رءوسهم؛ فأخلف الله ظنهم وأُسِرُوا وقُتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازيمن على الصِرَّام فخابوا. ثم قيل: إن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجباً عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعاً؛ والأول أظهر، والله أعلم. وقيل: السورة مَكّية؛ فَبَعُدَ حمل الآية على ما أصاب أهل مكة من القَحْط، وعلى قتال بَدْر.

[٣٤] ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٣٨] ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[٣٩] ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ تقدم القول فيه؛ أي إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغّصه كما يشوب جنات الدنيا. وكان صناديد قريش يرون وفور حظّهم من الدنيا وقلّة حظوظ المسلمين منها؛ فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا: إن صَحَّ أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا. فقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كالكفار. وقال ابن عباس وغيره: قالت كفار مكة: إنا نُعطى في الآخرة خيراً مما تُعْطَوْن؛ فنزلت: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الأعوج؛ كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين. ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي. ﴿ إِنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ تختارون وتشتهون. والمعنى: أَنّ لكم (بالفتح) ولكنه كسر لدخول اللام؛ تقول علمت أنك عاقل (بالفتح)، وعلمت

(١) في ح، ز، ط، ل، هـ «وليرجعوا».

إنك لعاقل (بالكسر). فالعامل في ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ «تَدْرُسُونَ» في المعنى. ومنعت اللامُ في فتح «إن». وقيل: تم الكلام عند قوله: «تَدْرُسُونَ» ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي إن لكم في هذا الكتاب إذاً ما تخيرون؛ أي ليس لكم ذلك. والكناية في «فيه» الأولى والثانية راجعة إلى الكتاب. ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ أي عهود ومواثيق. ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ مؤكدة. والبالغة المؤكّدة بالله تعالى. أي أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كُسرت «إن» لدخول اللام في الخبر. وهي من صلة «أيمان»، والموضع النصب ولكن كسرت لأجل اللام؛ تقول: حلفت إن لك لكذا. وقيل: تم الكلام عند قوله: «إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» ثم قال: «إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ» إذاً؛ أي ليس الأمر كذلك. وقرأ ابن هُرْمُز «أَيْنَ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخيّرون» «أين لكم لَمَا تحكمون»؛ بالاستفهام فيهما جميعاً. وقرأ الحسن البصري «بالغةً» بالنصب على الحال؛ إما من الضمير في «لكم» لأنه خبر عن «أيمان» ففيه ضمير منه. وإما من الضمير في «عَلَيْنَا» إن قدّرت «علينا» وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس الأيمان؛ لأن فيه ضميراً منه، كما يكون إذا كان خبراً عنه. ويجوز أن يكون حالاً من «أيمان» وإن كانت نكرة، كما أجازوا نصب «حَقًّا» على الحال من «متاع» في قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[١]. وقرأ العامة «بالغةٌ» بالرفع نعت لـ «ـأيمان».

[٤٠] ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

[٤١] ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المتقوّلين عليَّ: أيُّهم كفيل بما تقدم ذكره. [وهو أن لهم من الخير][٢] ما للمسلمين. والزعيم: الكفِيل والضّمين؛ قاله ابن عباس وقتادة. وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن:

---

(١) راجع ٣/٢٢٨. (٢) زيادة يقتضيها السياق.

الزعيم الرسول. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ألهم والميم صلة. «شُرَكَاء» أي شهداء. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ يشهدون على ما زعموا. ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم. وقيل: أي فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم؛ فهو أمر معناه التعجيز.

[٤٢] ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يجوز أن يكون العامل في «يَوْمَ» «فَلْيَأْتُوا» أي فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق ليشفع الشركاء لهم. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي أذكر يوم يكشف عن ساق؛ فيوقف على «صَادِقِينَ» ولا يوقف عليه على التقدير الأول. وقرىء «يوم نكشف» بالنون. «وقرأ» ابن عباس «يوم تكشف عن ساق» بتاء مسمَّى الفاعل: أي تكشف الشدة أو القيامة عن ساقها؛ كقولهم: شَمّرت الحرب عن ساقها. قال الشاعر:

فتى الحرب إن عضّت به الحربُ عَضَّها ... وإن شَمّرت عن ساقها الْحَرْبُ شَمّرا[١]

وقال الراجز:

قد كشفت عن ساقها فشُدُّوا ... وجَـدّت الحـربُ بكـم فَجِـدُّوا

وقال آخر:

عجبت من نفسي ومن إشفاقها ... ومن طِرَاد الطيرِ عن أرزاقها
في سَنة قد كشفت عن ساقها ... حمراء تَبْرى اللحمَ عن عُرَاقها[٢]

وقال آخر:

كشفـت لهـم عـن سـاقهـا ... وبـدا مـن الشّـر الصُّـرَاحْ

(١) البيت لحاتم الطائي. ويروى: أخو الحرب. وأخا الحرب.
(٢) العراق بضم العين: العظم بغير لحم؛ فإن كان عليه لحم فهو عرق بفتحها.

وعن ابن عباس أيضاً والحسن وأبي العالية «تُكْشَفُ» بتاء غير مسمّى الفاعل. وهذه القراءة راجعة إلى معنى «يُكْشَف» وكأنه قال: يوم تُكْشف القيامة عن شدة. وقرىء «يَوْمَ تُكْشِف» بالتاء المضمومة وكسر الشين؛ من أكشف إذا دخل في الكشف. ومنه: أكشف الرجل فهو مُكْشِف؛ إذا انقلبت شَفَتُه العليا. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال: عن كرب وشدّة. أخبرنا ابن جُريج عن مجاهد قال: شدّة الأمر وجِدّه. وقال مجاهد: قال ابن عباس هي أشد ساعة في يوم القيامة. وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب والأمر قيل: كشف الأمرُ عن ساقه. والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدّ شَمّر عن ساقه؛ فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة. وقيل: ساقُ الشيء أصله الذي به قِوامه؛ كساق الشجرة وساق الإنسان. أي يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها. وقيل: يكشف عن ساق جهنم. وقيل: عن ساق العرش. وقيل: يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البدن؛ أي يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج. فأما ما رُوِي أن الله يكشف عن ساقه فإنه عزّ وجلّ يتعالى عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى. ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره. وقيل: يكشف عن نوره عزّ وجلّ . وروى أبو موسى عن النبي ﷺ في قوله تعالى : «عَنْ سَاقٍ» قال: «يكشف عن نور عظيم يخرون له سجداً». وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره: حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا ابن منيع قال حدّثنا هُدْبة قال حدّثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بُردة عن أبي موسى قال حدّثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة مُثّل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحد[1] فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا ربًّا كنا نعبده في الدنيا ولم نره ـ قال ـ وتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه ولم تروه قالوا إنه لا شبيه له

(١) هكذا في الأصل المطبوع ولعلّه التوحيد كما سيأتي.

فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجّداً وتبقى أقوام ظهورهم مثل صَيَاصِي[١] البقر فينظرون إلى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيقول الله تعالى عبادي ارفعوا رءوسكم فقد جعلت بدل كل رجلٍ منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار». قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال: آللّهِ الذي لا إله إلا هو لقد حَدَّثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثةَ أيمان؛ فقال عمر: ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحبّ إليّ من هذا. وقال قيس بن السَّكَن: حَدّث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال: إذا كان يوم القيامة قام الناس لربّ العالمين أربعين عاماً شاخصةً أبصارهم إلى السماء، حُفاةً عُراةً يُلْجمهم العرق، فلا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاماً، ثم ينادي منادٍ: أيها الناس، أليس عدلاً من ربكم الذي خلقكم وصوّركم وأماتكم وأحياكم ثم عبدتم غيره أن يُوَلِّيَ كلَّ قوم ما تولَّوْا؟ قالوا: نعم. قال: فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقذفهم في النار، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم: ألا تذهبون قد ذهب الناس؟ فيقولون حتى يأتينا ربنا؛ فيقال لهم: أوَ تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف[٢] لنا عَرَفناه. قال فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلّى لهم فيخرّ من كان يعبده مخلصاً ساجداً، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد[٣]، فيذهب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾. ﴿خَاشِعَةً أَبْصارُهُمْ﴾ أي ذليلةً متواضعةً؛ ونصبها على الحال. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رءوسهم ووجوهُهم أشدّ بياضاً من الثلج، وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشدّ سواداً من القار.

قلت: معنى حديثِ أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدريّ وغيره.

---

(١) صياصي البقر: قرونها.
(٢) أي إذا وصف نفسه بصفة تحققه بها.
(٣) السفافيد: جمع السفود (وزن التنور): الحديدة التي يشوى بها اللحم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي في الدنيا. ﴿وَهُمْ سالِمُونَ﴾ مُعَافَوْن أصّحاء. قال إبراهيم التَّيْمِيُّ: أي يدعون بالأذان والإقامة فيأبونه. وقال سعيد بن جُبَير: كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون. وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلّفون عن الجماعات. وقيل: أي بالتكليف المُوَجَّه عليهم في الشرع؛ والمعنى متقارب. وقد مضى في سورة «البقرة» الكلام في وجوب صلاة الجماعة[1]. وكان الربيع بن خَيْثم قد فُلِج وكان يُهَادَى[2] بين الرجلين إلى المسجد؛ فقيل: يا أبا زيد، لو صلّيت في بيتك لكانت لك رخصة. فقال: من سمع حيّ على الفلاح فلْيُجِب ولو حَبْواً. وقيل لسعيد بن المسيّب: إن طارقاً يريد قتلك فتغيّب. فقال: أبحيث لا يَقْدِر الله عليّ؟ فقيل له: اجلس في بيتك. فقال: أسمع حيّ على الفلاح، فلا أجيب!.

[٤٤] ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي﴾ أي دَعْنِي. ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ «مَنْ» مفعول معه أو معطوف على ضمير المتكلم. ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن: قاله السدّيّ. وقيل: يوم القيامة. وهذا تسلية للنبي ﷺ أي فأنا أجازيهم وأنتقم منهم. ثم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ معناه سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون: فعُذّبوا يوم بَدْر. وقال سفيان الثَّوْريّ: نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر. وقال الحسن: كم مستدرَج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالسّتر عليه. وقال أبو رَوْق: أي كلّما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار . وقال ابن عباس: سنمكر بهم. وقيل: هو أن نأخذهم قليلاً ولا نباغتهم. وفي حديث «أن رجلاً من بني إسرائيل قال يا ربّ كم أعصيك

(١) راجع ١/٣٤٨.
(٢) أي يمشي بينهما معتمداً عليهما لضعفه وتمايله؛ من «تهادت المرأة في مشيتها»: إذا تمايلت.

وأنت لا تعاقبني ـ قال ـ فأوحى الله إلى نبيّ زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر. إن جمود عينيك وقَسَاوَةَ قلبك استدراجٌ منّي وعقوبةٌ لو عَقَلت». والاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرّج. ومنه قيل درجة؛ وهي منزلة بعد منزلة. واستدرج فلان فلاناً؛ أي استخرج ما عنده قليلاً. ويقال: درّجه إلى كذا واستدرجه بمعنًى؛ [أي] أدناه منه على التدريج فتدرّج هو. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدّة. والملاوة[1]: المُدة من الدهر. وأملى الله له أي أطال له. والملَوان: الليل والنهار. وقيل: «وأُمْلِي لَهُمْ» أي لا أعاجلهم بالموت؛ والمعنى واحد. وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا[2]. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن عذابي لقوِيّ شديد فلا يفوتني أحد.

[٤٦] ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

عاد الكلام إلى ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾. أي أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليهم من الإيمان بالله؟ فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يشقّ عليهم من بذل المال؛ أي ليس عليهم كُلْفة، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويَصلون إلى جنات النعيم.

[٤٧] ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي علم ما غاب عنهم. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقيل: أينزل عليهم الْوَحْيُ بهذا الذي يقولون. وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوح المحفوظ؛ فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به، ويكتبون أنهم أفضل منكم، وأنهم لا يعاقبون. وقيل: «يَكْتُبُونَ» يحكمون لأنفسهم بما يريدون.

[٤٨] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) مثلث الميم.

(٢) راجع ٧/٣٢٩.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لقضاء ربّك. والحكم هنا القضاء. وقيل: فأصبر على ما حكم به عليك ربُّك من تبليغ الرسالة. وقال ابن بحر؛ فأصبر لنصر ربك. قال قتادة: أي لا تعجل ولا تغاضب فلا بدّ من نصرك. وقيل: إنه منسوخ بآية السيف. ﴿وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني يونس عليه السلام. أي لا تكن مثله في الغضب والضَّجَر والعَجَلة. وقال قتادة: إن الله تعالى يُعَزِّي نبيّه ﷺ، ويأمره بالصبر ولا يعجَل كما عَجِل صاحب الحُوت؛ وقد مضى خبره في سورة «يونس[1]»، «والأنبياء[2]»، والصافات»[3] والفرق بين إضافة ذي وصاحب في سورة «يونس» فلا معنى للإعادة. ﴿إِذْ نَادَى﴾ أي حين دعا في بطن الحوت فقال: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غمًّا. وقيل: كرباً. الأوّل قول ابن عباس ومجاهد. والثاني قول عطاء وأبي مالك. قال الماورديّ: والفرق بينهما أن الغمّ في القلب، والكرب في الأنفاس. وقيل: مكظوم محبوس. والكظم الحبس؛ ومنه قولهم: فلان كَظَم غيظَه، أي حبس غضبه؛ قاله ابن بحر. وقيل: إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس؛ قاله المبرّد. وقد مضى هذا وغيره في يوسف»[4].

[٤٩] ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قراءة العامة «تَدَارَكَهُ». وقرأ ابن هُرْمُز والحسن «تدَّاركه» بتشديد الدال؛ وهو مضارع أدغمت التاء منه في الدال. وهو على تقدير حكاية الحال؛ كأنه قال؛ لولا أن كان يقال فيه تتداركه نعمة. ابن عباس وابن مسعود: «تداركته» وهو خلاف المرسوم. و «تَدَارَكَهُ» فعلٌ ماضٍ مذكّر حُمل على معنى

(١) راجع ٨/ ٣٨٣.
(٢) راجع ١١/ ٣٢٩. ١١/٢٧٩
(٣) راجع ١٥/ ١٢١.
(٤) راجع ٩/ ٢٥٩.

النعمة؛ لأن تأنيث النعمة غير حقيقي. و «تداركته» على لفظها. واختلِف في معنى النعمة هنا؛ فقيل النُّبوّة؛ قاله الضحاك. وقيل عبادته التي سلفت؛ قاله ابن جُبير. وقيل: نداؤه «لاَ إِلَه إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين»؛ قاله ٱبن زيد. وقيل: نعمة الله عليه إخراجه من بطن الحوت؛ قاله ابن بحر. وقيل: أي رحمة من ربه؛ فَرَحِمه وتاب عليه. ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لَنُبِذ مذموماً ولكنه نُبذ سقيماً غير مذموم. ومعنى «مَذْمُومٌ» في قول ابن عباس: مُلِيم. قال بكر بن عبد الله: مذنب. وقيل: «مذموم» مُبْعَدٌ من كلّ خير. والعَرَاء: الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبل ولا شجر يستر. وقيل: ولولا فضل الله عليه لبقِيَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نُبذ بعراء القيامة مذموماً. يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١]. ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي اصطفاه واختاره. ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: ردّ الله إليه الوَحْي، وشفّعه في نفسه وفي قومه، وقبِل توبته، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

[٥١] ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ «إنْ» هي المخففة من الثقيلة. ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ أي يعتانونك. ﴿ بِأَبْصَارِهِم ﴾ أخبر بشدّة عداوتهم النبي ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حُجَجِه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المِكْتَل[٢] والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت

---

(١) راجع ١٥/١٢٣.

(٢) المكتل: زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره.

فتُنْحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخِباء فتمرّ به الإبل أو الغنم فيقول: لم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم؛ فلما مرّ النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيّداً وإخال أنك سيّدٌ مَعْيُونُ

فعصَم الله نبيّه ﷺ ونزلت: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾. وذكر نحوه الماوردي. وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً ـ يعني في نفسه وماله ـ تجوّع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن؛ فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال القُشَيْرِي: وفي هذا نظر؛ لأنّ الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن.

قلت: أقوال المفسرين واللغويّين تدلّ على ما ذكرنا، وأن مرادهم بالنظر إليه قَتْلُه. ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك. وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد «ليزهقونك» أي ليهلكونك. وهذه قراءة على التفسير؛ من زهقت نفسه وأزهقها. وقرأ أهل المدينة «لَيَزْلِقُونَكَ» بفتح الياء. وضمها الباقون؛ وهما لغتان بمعنًى؛ يقال: زَلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقاً إذا نَحّاه وأبعده. وزَلَق رأسه يَزْلِقه زلقاً إذا حلقه. وكذلك أزْلَقه وزَلَّقه تزليقاً. ورجل زَلِق وزُمْلِق ـ مثال هُدَبِد ـ وزُمَالق وزُمّلِق ـ بتشديد الميم ـ وهو الذي يُنزِل قبل أن يجامع؛ حكاه الجوهري وغيره. فمعنى الكلمة إذاً التنحية والإزالة؛ وذلك لا يكون في حقّ النبي ﷺ إلا بهلاكه وموته. قال الهَرَوِيّ: أراد لَيعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوةً لك. وقال ابن عباس: ينفذونك بأبصارِهم؛ يقال: زَلَق السهمُ وزَهَق إذا نفذ؛

وهو قول مجاهد. أي يَنْفذونك من شدّة نظرهم. وقال الكلبي: يَصْرَعونك. وعنه أيضاً والسُّدِّي وسعيد بن جُبَير: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة. وقال العَوْفِيّ: يَرْمُونك. وقال المُؤَرِّخ: يُزيلونك. وقال النَّضْر بن شُميل والأخفش: يفتنونك. وقال عبد العزيز بن يحيى: ينظرون إليك نظراً شزْراً بتحديق شديد. وقال ابن زيد: لَيَمَسُّونك. وقال جعفر الصادق: ليأكلونك. وقال الحسن وابن كَيْسان: ليقتلونك. وهذا كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه. قال الشاعر:

ترميك مَزْلَقَةُ العيون بطرفها ... وتَكِلُّ عنك نصالُ نَبْلِ الرامي

وقال آخر:

يتقارضون إذا التقَوْا في مجلس ... نَظَراً يُزِل[1] مواطىء الأقدام

وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك. وهذا كله راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع: يصيبونك بالعين. والله أعلم.

[٥٢] ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي وما القرآن إلا ذكر للعالمين. وقيل: أي وما محمد إلا ذكر للعالمين يتذكّرون به. وقيل: معناه شَرَفٌ؛ أي القرآن. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] والنبي ﷺ شرف للعالمين أيضاً. شَرُفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.